على مَقام الصَّبَا

طريق أبي الحسن من العزلة إلى النكسة

مروان الغفوري

2022

إلى أحمد الغفوري، أبي وصديقي

فهرس النصوص

مقدمة 1

عليٌّ العادي 6

ربع قرن في البيت 18

خلافة على ظهر النمر 28

من يقتل الخليفة وله كذا وكذا 44

إمام فائض عن الحاجة 55

امتحان صِفّين 66

الرئاسة خدعة 76

أخطر ليلة في حياة العرب 92

الطريق إلى الغار 97

البكاء أمام الغارات 103

ما ورثه الحسن عن أبيه 113

ابن ملجم في المسجد 114

ما بعد صفّين 117

العدل كما تخيّله الحُسين 121

اللعنة والفداء 129

مراجع الكتاب 137

مقدمة

تبدو سيرة علي بن أبي طالب أكبر حجماً، وربما شأناً، من سيرة الإسلام. وفي بعض مراحلها فإنها تبتلع الإسلام ثم تقذفه وقد تغيّرت ملامحه الأساسية. منذ الأيام الأولى لوصول عليّ إلى الحكم قرّر تنحية الدبلوماسية جانباً والمبادرة إلى السيف. والسيف، كعادته، يفلق الشيء إلى نصفين. والسيف، كما هي طبيعته، يجلب السيوف. كان سيف علي من شعبتين، كما تصفه كتب التاريخ الشيعية والسنية. الوصف الذي يقدمه المؤرخون الشيعة لسيف عليّ ذي الشعبتين يكاد يتطابق مع وصفهم لخنجر أبي لؤلؤة الذي أودى بحياة الخليفة عمر بن الخطاب. في آخر المطاف فإن خرافة ذي الفقار، السيف الذي جاء به آدم من الجنة ويُقال نزل به جبريل، ليست أكثر من قصة رمزية عمّا فعلته حروب علي بالمجتمع المسلم: شطرته إلى نصفين.

بين وفاة النبي محمد ووصول علي إلى الحكم خمس وعشرون عاماً لم يخض فيها عليّ حرباً واحدة. اعتزل حروب فرض هيبة الدولة، تلك التي تنعت بحرب الردة، كما تخلّى عن "الفتوحات" في الشمال. خلال ربع قرن يكاد المرء لا يعثر على خبر موثوق عن عليّ بن أبي طالب. وما سيقال عن ممارسته للفقه والتعليم الديني في غيبته الكبرى تلك ليس أكثر من لغو خارج السياق التاريخي، يهدف إلى تشتيت الأنظار. هل مكث عليّ لربع قرن يزيّت ذا الفقار ويجهزه لحروب في ظهر الغيب؟ كان عليّ مسلماً اعتيادياً، لم يكترث القرآن لوجوده، وكان ذلك موقف كبار الصحابة. إذا استطاع أبو بكر أن يسيطر على الجزيرة العربية خلال أقل من عام دون الحاجة لأي عون من بني هاشم. وذهب عمر وعثمان يخوضان كبرى الحروب في الشرق والغرب دون أن يجعلا في مقدمة الجيوش أياً من آل بيت رسول الله. في الحروب الداخلية فقط، مواجهة المسلمين بالمسلمين، كان بنو هاشم يكونون في المقدمة، وتلك مسألة تؤكدها كتب التاريخ على اختلاف

فلسفتها وأزمنتها. فالهاشميون لم يذهبوا إلى الحرب في الشام إلا متأخرين حين كانت قد أصبحت بلاداً مسلمة.

سمع المسلمون اسمي عيسى ومريم في القرآن زهاء خمسين مرّة، وقرأوا سورة من السبع الطوال تحمل اسم عائلة مريم. ما من إشارة واحدة لآباء النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ولا لذريته. من المهم أن يعرف المسلمون عن عيسى وأمّه الكثير، أن يتعلموا من حقبة شديدة الأهمية في تاريخ الرسل، فالبشر كما الرسل يتشابهون. ما الذي سيتعلمه عرب الجزيرة من تاريخ بني هاشم؟ وكيف سيقنعهم الإسلام بنظريته في العدالة إذا كان سيقسمهم إلى أسياد هاشميين ومسلمين عاديين.

في الكوفة، وعليّ عالق بين الحرب والسلام، يعاتبُ شعبه قائلاً إن تقاعسهم عن خوض الحرب إلى جواره من شأنه أن يؤكد ما تعتقده قريش عنه، أنه ليس برجل حرب. كان ابن عبّاس قد صارحه بذلك قبل خروجه إلى الكوفة. نصحه بالميل إلى الحوار والدبلوماسية، وبرّر نصيحته بأمور كثيرة منها افتقار علي إلى الدراية بالحرب. لا يوجد ما يمكن وصفه بالتاريخ العسكري لعلي بن أبي طالب. أما مديح الفروسية الذي أغرق المكتبات فلا يجد ضالته سوى في خرافتين اثنتين: الأولى في معركة الخندق، حيث المحارب الوهمي المسمى عمرو بن عبد ود. والثانية من حصار خيبر، حيث يفتك عليّ بفارس شبه وهمي اسمه مرحب، ويرفع باب حصن وهمي بيد واحدة. لخيبر ثلاثة عشر حصن، يفصلها عن بعضها وديان وجروف، بيد أن الخرافة جعلتها حصناً واحداً ووضعته في قبضة علي. دفعتني خرافة البطل إلى تتبع باقي الأكذوبات: الحكيم، الفقيه، وسواها. مما حاجج به معاوية، في رسالته الشهيرة، أن سبب رفضه لولاية عليّ يعود إلى تجاهل الشيخين، أبي وبكر وعمر، لأبي الحسن. لم يقدماه في شيء ولم يستشيراه في شأن، تقول الرسالة، ما يعني أنهما لم يريا فيه ما يكفي من الجدارة. حجاج معاوية ذاك، في رسالته إلى محمد

بن أبي بكر، سيعززه ابن تيمية في منهاج السنّة قائلاً إن أهل المدينة لم يكونوا يأخذون العلم عن علي، وأن مناهلهم في الفقه ليس من بينها أبو الحسن.

إعادة تركيب الصورة الكاملة لعليّ بن أبي طالب تستدعي انتباها عالياً عند قراءة الرواية التاريخية. فما من مؤرخ، ربما باستثناء الجاحظ في العثمانية، تجرأ على القول إن عليّاً كان أقل جدارة من المسائل التي خاض فيها، العسكرية أو السياسية. بينما ذهب الجاحظ إلى طفولة علي وشبابه في مكة، ليقول لنا إن الرجل عاش هناك لا طالباً ولا مطلوباً، حين كان سائر المسلمين يلاحقون ويعذبون حتى الموت. يمرّ هذا الكتاب بتكثيف رأيناه ضرورياً على أبرز المنازل في درب عليّ بن أبي طالب، بما في ذلك خرافة نومه في فراش النبي ليلة الهجرة. كما يتتبع شكل العلاقة التي نشأت بين عليّ وشعبه في الكوفة، تلك التي بلغت حد القطيعة. حتى إنه ليمكننا القول إن عليّاً كان أول حاكم عربي خلعه شعبه. نتحدث هُنا عن شعبه في الكوفة، مركز عاصمته، لا دولة معاوية الموازية لدولته.

عاشت دولة عليّ وقتاً شديد القصر، ولم تعرف هدوءاً قط. الربع قرن الأول من حياة المسلمين بعد موت النبي كان قد مكّن الناس من استيعاب رؤية الإسلام المرتكزة في المقام الأول على المساواة والعدل. حين وضع عليّ قدمه في الرئاسة، قادماً من العزلة، فعل ذلك بوصفه ابن عم النبي، ومستنداً إلى سيوف المتمردين الذين فرضوا امتثالاً إجباريا في العاصمة. تلك هي اللحظة الشديدة، لحظة زعزعة اليقين. الإسلام العادل والمحايد اتّسع فجأة لشيء من خارجه: الأفضلية لمن تربطهم بالنبي قرابة دم. خلاف ذلك كان قد استقر في ضمير المسلمين حين بقي بنو هاشم صامتين، وحين تحدثوا أخيراً فقد ألبسوا على المسلمين دينهم.

لم تستثر تلك اللحظة المسلمين من خارج بني هاشم وحسب، بل زوجات النبي في المقام الأول. رأينَ أن العائلة ذاهبة، بإصرار منقطع النظير، في سبيل اختطاف النبي واحتكاره. وقبل أن تصادم

نظرية الحق الإلهي، التي استند إليها عليّ، سائر المسلمين كانت قد صادمت زوجات النبي، وكلّهن آنذاك من خارج السلالة. كانت ابنة عمّته زينت، زوجته الوحيدة من العائلة، قد توفيت في زمن عثمان. انقسم الناس حيال رئاسة علي إلى مؤيدين، معارضين، وممتنعين. وانتظروا جميعاً نتيجة أول حرب أهلية سيخوضها علي: في مواجهة زوجة النبي. كان في المدينة آنذاك عشرون ألفاً من أصحاب رسول الله، وثمّة طبقة مرموقة يقال لها كبار الصحابة، من أهل الحل والعقد والنفوذ الأخلاقي. من تلك الطبقة الرفيعة لم يخرج مع علي لمواجهة أم المؤمنين عائشة سوى رجلين، ويقال أربعة. كان عمّار بن ياسر أحد الرجلين، وهو صحابي نهره أبو موسى الأشعري، في العراق، صارخاً يا قاتل عثمان. رد عمّار بالقول إنه لم يفعل وأن الأمر لم يسؤه.

بدا واضحاً منذ اللحظة التي عجز فيها عليّ عن حشد ألف محارب من المدينة ومكّة، وهو يتحضر لملاقاة عائشة، أن الرجل قد وضع قدميه في طريق المتاهة. همس له ابنه الحسن، وهما في الطريق إلى العراق، معاتباً إياه: لولا استمعتَ إليّ. كان قد نصحه باعتزال الناس والأحداث، وأن لا يفرض نفسه على مجتمع ليس في حاجة إليه. حذره، بصراحة أغضبت الأب، من الموت في مضيعة من الأرض. تلك المضيعة من الأرض اتخذها عليّ عاصمة له. مثّل قرار نقل العاصمة إلى الكوفة زلزالاً لا يقلّ وزناً ونوعاً عن قرار تحويل القبلة إلى مكّة. بعد مقتل عليّ فقدت الكوفة تلك المكانة إلى الأبد. إذ أدرك الأمويون، ومن بعدهم العبّاسيون، أن تلك الحاضرة التي نشأت بفعل الحروب لا يمكنها إلا أن تكون أرضاً للحروب. والكوفة، كما سنبيّن في الكتاب، كلمة تعني المعسكر. ومع الأيام ستمثل ثقباً أسود لحروب الطالبيين وطموحاتهم.

ومن حقّنا أن ندّعي أن كتابنا هذا توغّل بشجاعة وحذر في حقبة تاريخية شديدة التعقيد، وأنه رغم استنتاجاته العديدة قد خلق من الأسئلة أكثر مما قدم من الإجابات. كما أن الإسهام الأساسي الذي سيقدمه الكتاب، كما ندّعي، لن يكون في تغيير القناعات واليقين بل في زعزعة ذلك كله.

عليٌّ العادي

الضجيج الذي أحدثه **الكوفيون** حول حياة علي بن أبي طالب لم يجعلها أكثر إشراقاً، بل أثار نحوها الشكوك. وهو على قيد الحياة كانت جماعة احترافية من أصحابه قد دشنت مشروع خلق الأسطورة[1]. لنأخذ مثلاً حبّة العرني، وكان من أصحاب عليّ القريبين. روى العرني عن علي، قال: بُعث رسول الله يوم الاثنين، وأسلمت يوم الثلاثاء[2]. هذا الرجل، من أصحاب علي، لخّصه ابن الجوزي في جملة قاتلة: حبّة لا يُساوي حبّة[3]. كان حبّة العرني مجرد فرد صغير في منظومة برزت أول الأمر في حياة علي وتحت سلطته، واستمرت في التاريخ.

عاش رجلاً عادياً، لا طالباً ولا مطلوباً، كما يتخيله الحاجظ في كتاب العثمانية. في صحيح مسلم نعثر على رجل من عامة الناس، يضربه الجوع فيذهب للمطالبة بميراث زوجته، يصارع عمه العباس فيشتمه العمّ مستنصراً الخليفة "**اقض بيني وبين هذا الكاذب، الآثم، الغادر، الخائن**". يحدث ذلك بحضور حشد من الصحابة بينهم ابن عوف والزبير وسعد، ويستمعون لكل ذلك السباب فيطلبون من عُمر أن ينهي المسألة. ينهر عمرٌ علياً، مذكراً إياه بما سبق وأثاره حين جاء إلى أبي بكر حاملاً نفس المطالب، وكانت فاطمة قد توفيت بعد رسول الله بنصف عام. نهر عمر الرجلين المتخاصمين، قال "جئتما تطلب ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا

---

[1] انظر: أثر التشيّع على الروايات التاريخية، عبدالعزيز ولي، ١٤١٥ هـ

[2] مسند أبي يعلى، الطبعة الأولى، دار المأمون، الجزء الأول، ص: ٣٤٨

[3] ابن الجوزي، الموضوعات، دار الفكر، الطبعة الثانية، الجزء الأول، ص: ٣٤٢

ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نورث، ما تركناه صدقة . فرأيتماه كاذبًا آثمًا غادرًا خائنًا، والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق". يستغل عمر الحدث، بما إن أحد الرجلين قد اتهم الآخر بالخيانة والكذب، مذكراً إياهما "رأيتماني كاذبًا آثمًا غادرًا خائنًا، والله يعلم إني لصادق بار راشد تابع للحق"[1].

[1] أخرج **مسلم** الحديث في صحيحه (باب حكم الفيء، حديث رقم ٤٩ – ١٧٥٧) عن الزهري :أن مالك بن أوس، حدثه، قال: أرسل إليّ عمر بن الخطاب، فجئته حين تعالى النهار، قال: فوجدته في بيته جالسًا على سرير، مفضيًا إلى رماله، متكئًا على وسادة من أدم، فقال لي: يا مال؛ إنه قد دف أهل أبيات من قومك، وقد أمرت فيهم برضخ، فخذه فاقسمه بينهم، قال: قلت: لو أمرت بهذا غيري، قال: خذه يا مال، قال: فجاء يرفا، فقال: هل لك . يا أمير المؤمنين . في عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد؟ فقال عمر: نعم، فأذن لهم فدخلوا، ثم جاء، فقال: هل لك في عباس، وعلي؟ قال: نعم، فأذن لهما، **فقال عباس: يا أمير المؤمنين، اقض بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن**، فقال القوم: أجل . يا أمير المؤمنين . فاقض بينهم وأرحهم . فقال مالك بن أوس: يخيل إليّ أنهم قد كانوا قدموهم لذلك. فقال عمر: اتئدا، أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا نورث ما تركنا صدقة؟ قالوا: نعم، ثم أقبل على العباس، وعلي، فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، أتعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لا نورث ما تركناه صدقة؟ قالا: نعم، فقال عمر: إن الله جل وعز كان خص رسوله صلى الله عليه وسلم بخاصة، لم يخصص بها أحدا غيره، قال: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ (الحشر:7) ما أدري هل قرأ الآية التي قبلها أم لا؟ قال: فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينكم أموال بني النضير، فوالله، ما استأثر عليكم، ولا أخذها دونكم، حتى بقي هذا المال، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منه نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي أسوة المال، ثم قال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، ثم نشد عباسًا، وعليًا، بمثل ما نشد به القوم، أتعلمان ذلك؟ قالا: نعم، قال: فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئتما تطلب ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، **فقال أبو بكر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما نورث ما تركناه صدقة . فرأيتماه كاذبًا آثمًا غادرًا خائنًا**، والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق، ثم توفي أبو بكر وأنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولي أبي بكر، **فرأيتماني كاذبًا آثمًا غادرًا خائنًا**، والله يعلم إني لصادق بار راشد تابع للحق، فوليتها، ثم جئتني أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد، فقلتما: ادفعها إلينا، فقلت: إن شئتم دفعتها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تعملا فيها بالذي كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذتماها بذلك، قال: أكذلك؟ قالا: نعم، قال: ثم جئتماني لأقضي بينكما، ولا – والله – لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة، **فإن عجزتما عنها فرداها إليّ**.

سنأتي على موقف شُرّاح صحيح مُسلم، ومحاولتهم تفريغ لغة العباس من معانيها كي لا يقعوا في المحظور، فابن حجر سيختار كلماته بعناية قائلاً إن العباس ربما كان "يدلل" عليّا ولا يتهمه. الحقيقة أن تعليق عُمر حول الحادثة لا يترك لكلمات ابن حجر من معنى. أبعد من ذلك، يشير عُمر هُنا إلى ما قاله عليٌ بحقه وحق سلفه حين وصفهما بالكذابين والغدارين والخونة. كان واضحاً أن عليّاً، في سبيل نيل ما يعتقد أنه حقه، ذهب يتهم رجلين من كبار المسلمين بالخيانة والغدر. لم يكن أبو بكر وعمر خليفتين وحسب، بل كان الناس يأخذون عنهما الدين أيضاً. علينا أن نلتفت هُنا لأمر واسع الأهمية: حضور الزبير تلك الواقعة، حيث ينهي عُمر تقريعه للرجلين من بني هاشم متحديّاً "**فإن عجزتما عنها فرُدّاها إليّ**". فيما بعد سيرفض الزبير خلافة علي، وسيذهب لقتاله، وسيقتله رجال علي. والزبير ذاك هو زوج أسماء بنت أبي بكر، المرأة التي جهزت مؤنة النبي ساعة هجرته، وشقت نطاقها وربطت به سفرة النبي وصاحبه. ابن عوف أيضاً كان حاضراً. ومستقبلاً سيفضّل عثمان للخلافة على حساب علي. سنأتي على هذه المسألة أدناه. يعرف الرجلان، الزبير وابن عوف، الكثير عن حياة علي، وما الحادثة التي يرويها مسلم في صحيحه سوى لحظة واحدة داخل حياة من عشرات السنين، نادراً ما ألقي عليها الضوء . لنقفز إلى الضفة الأخرى، إلى "وسائل الشيعة" للحر العاملي (ت. ١٦٩٢م) لنرى جانباً من عاديات علي بن أبي طالب، من يومياته. في باب نكاح الجواري والعبيد يورد هذا النص: كان أبو الحسن عليه السلام –يقصد علياً– ينام بين جاريتين ويكره ذلك مع الحرائر،

وإن كان لا بأس به[1]. نوم أبي الحسن مع جاريتين في الوقت نفسه هو أمر استفاض فيه محمد العاملي، من علماء القرن الحادي عشر ميلادي، في نهاية المرام. كما عززه بمرويات عن جعفر الصادق، حفيد أبي الحسن، مثل أنه كان لا يرى بأساً في أن يطأ الأمة وفي البيت غيره يراه[2]. محمد العاملي عالم شيعي مبجل، هو صاحب المدارك، ويعرف معنى ما يكتبه، خصوصاً وهو يكتب نهاية المرام في القرن العاشر الميلادي. إن التنقل بين الضفتين، السنّية والشيعية، للبحث في حياة الرجل أمر مهم، فقد تجد في البحر ما لا تجد في النهر، ولنضع الصورة في إطارها المناسب حتى لا يذهب كلامنا في طريق المجابهات الطائفية .

نريد هُنا فقط أن نلقي صورة على الحياة العادية لعلي بن أبي طالب. من ذلك ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية أن عليّاً تزوّج ابنة امرئ القيس بن عدي، من بني كلب. أنجبت له طفلة، وكان يأخذها إلى المسجد ويقدمها إلى المصلّين ليضحكوا معاً على هذا الأمر: يسألونها من أخوالك فتقول وه وه وه (تقلّد نباح الكلب) ، تشير إلى أخوالها من بني كلب[3]. كان عليّ يعلم ابنته أن تتحدث عن أخوالها بتلك الطريقة أمام الناس، وتضحكهم. سبق لنا أن تتبعنا سيرة طفل آخر تربى في معيته، كان اسمه محمد بن أبي بكر، وحين بلغ الخامسة والعشرين اقتحم بيت

---

1 الحر العاملي، وسائل الشيعة ٥٨٩/١٤. **كما هو في:** الكافي للكليني ٥/ ٥٦٠، التهذيب **للطوسي** ٤٨٦/٧. كذلك عند البحراني في **الحدائق الناضرة** ٢٤/ ٣٢٧. زاد الكليني في **الكافي**، ناسباً الكلام إلى الحُسين: **إنما نساؤكم بمنزلة اللعب**.

2 السيد محمد العاملي، نهاية المرام ٣٢٣/١

3 ابن كثير، البداية والنهاية ٣٦٧/٧

الخليفة وطعنه في حلقه وفقاً لعدد كبير من النصوص التاريخية، وسيصفه ابن تيمية في منهاج السنة قائلاً: كان رجلاً بلا فضيلة.

اختفى علي في المدينة لربع قرن، بين موت النبي ومعركة الجمل. إذا حملنا كاميرا وتقصينا أثره فلن نجد شيئاً مما يمنح الرجل منزلة "باب مدينة العلم". إن اختلافه مع أبي بكر ثم عُمر حول ميراث زوجته، وكان يجرّ معه العبّاس ليطالب بمال النبي، يجعلنا نتساءل عن الحرفة التي عمل بها عليّ، عن الصنعة التي كسب من خلالها رزقه. كان يتعالى على عمل اليد، ولم تكن له من حرفة. ضربه الجوع ذات مرّة فراح إلى يهودي ليعطيه عملاً، فطلب منه أن يسقي شجراته وسيحصل لقاء كل نضحة، سطل من الماء، على تمرة[1]. كان رجلاً عادياً، يحصل على هذه الأعمال المتواضعة فلم يكن يحترف شيئاً بعينه، وأيضاً **لأنه لم يكن ثقيل الشأن داخل مجتمعه**. لننظر إلى رجل يقف إلى جوار علي، اسمه عبد الرحمن بن عوف، ولنرَ ما الذي كان يصنعه. كان عبد الرحمن بن عوف مهاجراً، وحين قال له سعد بن الربيع هلمّ أقاسمك مالي قال ابن عوف دلوني على السوق "فما رجع يومئذ إلا ومعه شيء من أقط وسمن"[2]. الطريق نفسه سيسلكه عثمان، وسيذهب بعيداً في السوق حتى يصبح رجلاً ارستقراطياً واسع الثرو، وسيتولى العبء الأكبر في

[1] الألباني، كتاب **دروس الشيخ الألباني**، الجزء السادس، صفحة ٨. شرح حديث "إنّ مما أخاف عليكم".

[2] رواه الشيخان

تجهيز أول جيش إمبراطوري للإسلام عشية تبوك. كان عليّ أصغر من الرجلين، شاباً فتيّاً، غير أنه لم يعرف الطريق إلى أي حرفة تدرّ عليه رزقاً.

كان عليّ في المدينة لا يفعل شيئاً، لا يتقن حرفة، ولا يساعد زوجته وهي تشتكي له "لقد طحنتُ حتى مجلت يداي"، فينصحها بأن تشتكي لوالدها لعله يعطيها "خادما"، كما في رواية الشيخين، أو جارية، كما في مسند أحمد. رفض النبي الاستجابة لطلبها ونصحها بذكر الله، ومن المؤسف أننا لا نجد ما يكفي من الآثار والنصوص لنرى الصورة كما يجب، لنقرأ انفعالات النبي وهو يرى البؤس الذي تعيشه ابنته، وما إذا كان قد عاتب زوجها الشاب الذي لا يكسب ديناراً ولا درهماً، ويتعالى على أعمال الناس وصنائعهم.

حين قتل عُمر، الخليفة الثاني، وجاء الدور على ابن عوف، رئيس اللجنة المعنية باختيار الخليفة، وضع يده في يد عثمان، الرجل الذي يعمل ويكد ويكسب المال ويعرف الممكن والمستحيل وبمقدوره أن يفهم مشاكل شعبه. لم يفكّر باختيار علي، لا ينبغي أن تذهب الرئاسة إلى رجل لا يعرف السوق، لا يتقن حرفة، أي لا يفهم حياة الناس في حقيقتها. لنأخذ هذه الفكرة بعيداً ونذهب إلى "ساعة العسرة" التي أشارنا إليها سابقاً، وهي لحظة عصيبة في التاريخ الإسلامي قرر فيها النبي مواجهة الروم في تبوك سنة تسعة للهجرة.حدث الزحف في الصيف. وكانت الدولة العربية الجديدة قد أخذت مكانها وبرزت ملامحها بعد دخول النبي واليمنيين والقبائل إلى مكة، العاصمة الثقافية لقبائل الجزيرة العربية. حدث أول اشتباك بين العرب المسلمين والروم من

خلال اعتراض طريق الرسل، واهتمام الروم بتأسيس حائط صد من قبائل الشمال للحيولة دون تحول الدولة العربية إلى إمبراطورية. برزت العُسرة عندما لاحظ النبي أن مالية الدولة غير كافية لدعم الجيش لوجستيا فطلب من شعبه مساعدة الدولة. تقدم عثمان بن عفان بثلاثمائة بعير وآلاف الدينارات، كما في صحيح البخاري. سارع أثرياء العرب المسلمون وألقوا أموالهم في المعركة. الساعات تلك، والعرب يجهّزون بمشقة بالغة جيشاً ذا ملمح إمبراطوري لأول مرّة، كانت جليلةً سردها القرآن لتبقى عابرة للزمان وعامرة بالدلالة. يروي البيهقي، في حديث صحّحه الألباني، عن رجل لم يجد ما يقدمه للجيش آنذاك فتبرّع بعرضه[1]، أي بغفرانه لكل من سبه وشتمه. ويروي الشيخان عن رجل تبرّع بنصف صاع من التمر. زحف العرب لأول مرة في التاريخ باتجاه إمبراطورية روما الشرقية، ووقفوا قُبالتها ببسالة قلّ لها نظير. رجل واحد لم يجد ما ينفقه من أجل الجيش، ولا حتى نصف صاع من التمر. ذلك أنه كان فقيراً لا يملك شيئاً، فهو لا يعمل ولا يريد أن يعمل ويتعالى على صنائع البشر. وليست مصادفة إن وجدنا أن اسمه كان: علي بن أبي طالب. كل رفاقه الذين هاجروا معه من مكة وجدوا ما ينفقون، عداه. سيموت النبي بعد أقل من عامين من تلك المعركة وسيذهب هذا الرجل إلى خليفته يريد مال زوجته، ثم سيذهب إلى الخليفة الآخر يطالبه بالأمر ذاته. تلك أسهل طريقة للحصول على المال،أن يضع

[1] البيهقي، **دلائل النبوة**، الجزء الخامس، ص: ٢١٩

يده في ميراث ما. وتلك هي عادة الرجال الذين لا يجيدون أي صنعة، ويمضي بهم العُمر وهم بلا مهارات.

في مطلع النهضة الأوروبية عمل المثقفون، والمتدينون التقدميون، على نشر صورة للمسيح وهو يغسل أقدام حواريه. قالت تلك الصورة إن المسيح كان يعمل، يكد، ولا يتعالى. ساعدت الصورة، ضمن خطاب إصلاحي جديد، على خروج الناس من القدرية إلى مصادمة الحياة. لا نظير لتلك الصورة في حياة علي. ولو أنه أتقن حرفة ما، لو أنه جلس وساعد زوجته – لا نقول يغسل أقدام جنوده– لخدم التاريخ. بخلاف ذلك ذهب يركض وراء ما تركه والد زوجته له، ثم ركض خلف الخلافة لعل فيها مالاً. في صحيح البخاري أن عليّاً اعترض على العبّاس حين اقترح عليه أن يسألا النبي عن خليفته1، وكانت وجهة نظر علي شارحة لمجمل حياته: إنا والله لئن سألناها رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فمنعناها لا يعطينا الناس بَعده. ذلك مصدر للجاه والمال لا بد أن يبقى متاحاً وممكناً بالنسبة لرجل لا مال له، لا يتقن حرفة، يتعالى على عمل اليد، ولديه تصوّر حول مستقبل تملأه النساء والأبناء.

[1] صحيح البخاري من حديث ابن عبّاس. رقم ٤٤٤٧. **يقول العبّاس** مخاطباً عليّاً: أنت واللَّه بعد ثلاث عبد العصا، وإنّي واللَّهِ لَأَرى رسول اللَّه صلى اللهُ عليه وسلم سوْف يتَوفَّ من وجَعه هذا. إني لَأَعرف وجوهَ بنِي عبدِ المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم فَلْنسأَلْه فيمن هذا الأمرُ؛ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرِنا علِمناه، فأوصى بنا، **فقال علي**: إنا والله لئن سألناها رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فمنعناها لا يعطينا الناس بَعده.

إن كان عليّاً هو أمين سرّ النبي ووصيّه على المُلك فلماذا خاف من سؤال النبي حول من سيخلفه؟ من المحتمل أنه لم يجد، في كل حياته، إشارة واحدة تقول إن النبيّ كان يعوّل عليه في المسائل الكبيرة. ذلك ما جعله يجزم قائلاً: **وإني والله لا أسأَلها رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم**. وما إن تموت زوجته فاطمة عن ٢٩ عاماً حتى ينطلق في عالم المتعة، يحصل على الجارية والأخرى حتى بلغن العشرين، ويتزوج المرأة الأخرى، ويتجاوز أولاده الثلاثين. أمام ذلك الحشد الكبير من الأبناء والنساء وقف فقهاء العترة في حيرة من الأمر، إذ من شأن إسباغ القدسية على كل أبنائه أن يدخل فيها دماء من غير دماء فاطمة. تركت فاطمة خلفها غلامين: الحسن والحسن. ومات محسن طفلاً. جاء ذكور آخرون لعلي من نساء أخريات. في لوامع الأنور[1] يبذل مجد الدين المؤيدي قصار جهده لحصر مسمّى آل البيت فقط على الأربعة ومن جاء منهم: علي، فاطمة، الحسن، الحسين. هم الكساء، وبالضرورة فهم فقط من استحق الطهارة. ثم ينتقل بنا إلى جدل آخر يقول فيه إن تلك الطهارة باقي في ذرية الحسن والحسين دون الآخرين من أبناء وبنات علي. صار بمقدورنا، كما يدلّنا المؤيدي، أن نرى أطهاراً وأناساً أقل طهارة داخل بيت علي نفسه. العائلة العملاقة التي أسسها علي بعد موت النبي وفاطمة تمكننا من رؤية رجل شغوف بالحياة ومتعها. لنقارنه بمعاوية، خصمه اللدود: كان لمعاوية ثلاثة أولاد وحسب. أحدهم مات صغيراً، وعبد الله كان رجلاً متواضع العقل، وعمليّاً كان لديه ولد وحيد: يزيد، أمّه ميسون، من

[1] انظر: مجد الدين المؤيدي، **لوامع الأنور**، الجزء الأوّل، ص: ١١٥-١٢٤.

قبيلة يمنية هاجرت إلى الشام. كما لو أن معاوية لم يعرف طريق الإنجاب الذي عرفه علي. أو أنه كان أقل شغفاً بلذات الجسد من أبي الحسن.

الرغبوية في حياة علي بحاجة إلى بحث موسّع، ولا يمكن التسليم بما تذكره كتب شيعته. من المثير أن الشيعة غطست إلى حياة الرجل بجرأة وشمولية أكثر من السنة، ووصلت إلى علاقاته الجنسية وأبعد من ذلك. بينما وقفت الرواية السنّية على شواطئه، ترددت وتلعثمت. إن تتبع الحياة اليومية لعلي في المدينة يعطينا صورة عن رجل كسول، متعال، يحب النساء، يعيش داخل جزيرته الخاصة. فهو لم يتخلف عن كل معارك العرب، بما فيها حروب الردّة وحسب، بل أكثر من ذلك: منع جميع أبنائه من خوضها. وكان الأب الوحيد في المدينة، آنذاك، الذي لم يرسل أبناءه إلى أي معركة. كان له ٣١ من الأبناء من أكثر من ٢٤ امرأة وطأها، زوجات وإماء. ما الذي تعلمه الأبناء من أبيهم؟ لا شك أن ما تعلّموه كان حاسماً في حياتهم. فعندما قرأوا رسائل أهل الكوفة، سنة ٦١ للهجرة، التي تطالبهم بالمجيء لاستلام مقاليد الأمور احتشدوا، جمعوا عدتهم، وقطعوا الصحراء بحثاً عن الجاه والملك. وهناك في كربلاء قُتل سبعة من أبناء علي دفعة واحدة. خلال ستين عاماً، منذ الهجرة حتى اللحظة تلك، لم يصب أي من أبناء علي بجروح. عليّ نفسه قاعد نفسه عن النشاط العسكري وهو في سن الثالثة والثلاثين، ثم عاد إليه وهو على مشارف الستين حين يتعلق الأمر بحرب مميتة حول من يصبح ملكاً. يؤكد المؤيدي في لوامع الأنور أنّ عليّاً نأى بنفسه عن شؤون الدولة العسكرية لربع قرن من الزمن، لأنها لم تكن دولة حق، أي

ليست دولة هاشمية. وأن عليّاً "اعتزلهم ولم يقاتل معهم، وقد ألظّ عليه عُمر وورم أنفه" يقول المؤيدي وهو يقصد الخلفاء الثلاثة. عليّ، يؤكّد مجد الدين المؤيدي، ادخر رايات رسول الله وسيوفه ليوم الجمل[1]. ذلك أمر محيّر إذا ما استمعنا إلى عليّ شخصياً، كما في مسند الإمام أحمد، وهو يقول: كنتُ رجلاً أحب الحرب. ويروي كيف أنه منح أبناءه الثلاثة "الحسن، الحسين، محسن" اسم حرب، وكان النبي يأتي ويغيّر أسماءهم. كان يصر على أن يكون أولاده رجال حرب، وأن يشتقوا من الحرب أسماءهم. ثم لمّا كبروا أبعدهم عن كل الحروب التي خاضتها الدولة ضد خصومها من الخارج، وادّخرهم للحرب داخل الدولة.

لنمض قليلاً في المدينة، يمنة ويسرة، ربما نجد أثراً للرجل. ينسب إليه كتاب "نهج البلاغة" – وهو عمل ألفه الشريف الرضي[2] وأخوه مطلع القرن الخامس الهجري– وإن نسبته إلى علي تستحيل علمياً وعملياً. وبحسب ابن تيمية فهو كتاب موضوع، وفي أحسن أحواله فلا يصح منه أكثر من عشره. فجأة، بعد ثلاثة قرون ونصف من موت عليّ، ظهرت نصوص وخطب بلاغية مطوّلة بلا أنساب ولا أسانيد، كأنها ولدت من العدم، وقبل الشريف الرضي فإن أحداً لم يعرف عن تلك النصوص شيئاً لا المحدثون ولا الأدباء. علي، إذن، يكاد يكون بلا أثر قولي. روى مجموعة من الأحاديث، زهاء ٢٢٠ حديثاً، وليس في ذلك من ميزة. نسبة ملحوظة من تلك

[1] مجد الدين المؤيدي، **لوامع الأنور**، الجزء الثاني، ص: ٥٥٨.

[2] أبو الحسن، السيد محمد بن الحسين بن موسى، ويلقب بالشريف الرضي (٣٥٩ هـ – ٤٠٦). شاعر وفقيه ولد في بغداد وتوفي فيها. عمل نقيباً للطالبيين حتى وفاته، وهو الذي جمع **كتاب نهج البلاغة**.

النصوص تتعلق بامتيازه الشخصي، وبمدائح قال إنه سمعها من النبي. بقي إذن القول إن الخليفة كان يستشيره من وقت لآخر، وقد استشار غيره. وحتى إن حدث فهو أمر لا يرتقي به عن مرتبة الرجل العادي. سيرة فقيرة لرجل صنع منه الرواة والحكاؤون أسطورة الأساطير كلها، وجعلوا الملائكة تصيح من السماء "لا سيف إلا ذي الفقار، ولا فتى علي". ولعلي، تقول الأسطورة، سيف اسمه ذو الفقار. ومن عجب أنه لم يخض به حرباً واحدة منذ موت النبي حتى مقتل عثمان، أي على مدى ربع قرن من الزمن.

الحقيقة أن حياة علي مليئة بالفراغ، لا تكاد تعثر فيها على شيء. وما كان ممكناً أن تُبنى أسطورة الرجل على ذلك النحو العملاق[1] لو لم تكن حياته فراغاً واسعاً يصلح لكل ذلك البناء الزائف.

[1] ألّف جعفر العاملي كتاباً حول سيرة علي أسماه "**الصحيح من سيرة الإمام علي**". بلغ الكتاب زهاء ٥٣ مجلداً.

ربع قرن في البيت

مطلع العام ١١ للهجرة كانت وفاة النبي محمد، وبعد ٢٥ عاماً من رحيله سيقتل خليفته الثالث عثمان، يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة لسنة ٣٥ هجرية. ربع قرن من الزمن بين الرحيلين عاشت فيه دولة العرب الأولى عصرها الذهبي، إذ باتت – لحظة مقتل عثمان– تمتد من آسيا الوسطى حتى غرب أفريقيا أفقياً، ومن جزر البحر المتوسط شمالاً حتى بحر العرب جنوباً.

تحول العرب من قبائل مشتتة إلى إمبراطورية مركزية وجيش عملاق، ودخل في الخدمة العسكرية لأول مرة أسطول بحري يتحرك في شرق المتوسط، بأمر من عثمان. دون المؤرخون قصة قائد عربي انتصر في مائة معركة حربية متتالية منها واحدة كسبها في مواجهة مع النبي نفسه. سيقول عنه الباحث العسكري الباكستاني أ. أكرم، في دراسة فنية مثيرة، إنه أحد رجلين في التاريخ العسكري لم ينهزما في حياتهما قط، الآخر كان اسمه جنكيزخان[1]. ربع قرن حافل بالارتجاجات، ودع فيه العالم بيزنطة وفارس واستقبل الإمبراطورية العربية. رجل واحد غاب عن كل تلك المعارك والأحداث واختبأ في بيته في المدينة المنورة، ولم نجد له أثراً. اسمه علي بن أبي طالب. وضع سيفه في غمده ربع قرن من الزمن، وأمر أبناءه بالبقاء إلى جواره. الحقيقة أن علياً لم يعتزل زمن الفتوحات العربية وحسب، بل كان قد اعتزل حروب الانقلاب أيضاً، المسماة حروب الردة. في

[1] انظر الدراسة العسكرية التي أجراها الجنرال الباكستاني أ. أكرم بعنوان: **سيف الله خالد بن الوليد**. مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، بيروت. 1982. **ترجمة** صبحي الجابي.

الحروب تلك انقلبت الجزيرة العربية برمتها ضد النظام الجديد، ولم يتبق مع دولة أبي بكر سوى مكة والمدينة وجزء من ثقيف. وعندما التمس الخليفة عوناً من علي اعتذر الأخير وتلكأ، وترك الأمر برمته ولزم بيته. لا بد من الإشارة هُنا إلى مسألة هامة وهي رفض عليّ مبايعة أبي بكر الصديق في الأشهر الستة الأولى من خلافة الأخير، وهي الأشهر التي شهدت أقسى معارك حماية الدولة وأشدها ضراوة. أخذ المشهد السياسي– العسكري هذه الصورة:

بقيت في قبضة الخليفة قريتان ونصف القرية، وأعلن العصيان والرفض في سائر الحواضر والبداوات التي سبق لها أن التحقت بالدولة العربية الجديدة، أو أسلمت. لم تواجه الدولة العربية منذ لحظة التأسيس أزمة كتلك التي واجهتها بعد موت النبي. لا يتعلق الأمر بالردة عن العقيدة بل في التفكك السياسي وبروز دويلات ومشاريع أنبياء، وانزلاق الجزيرة إلى حرب الكل ضد الكل. ذهب مسيلمة يعرض مشروعه على سجاح، كما في الكامل في التاريخ: بقومي وقومك سنأكل سائر العرب. في الساعات تلك تضاءلت دولة العرب المسلمين حتى صارت واحدة من أصغر دويلات الجزيرة. كما هوجمت العاصمة من أكثر من جهة. وحدث أن المنقلبين اعتقلوا عمال النبي، طردوهم، أو قتلوهم. مرّ أبو بكر بأيام عصيبة، ولكنه كان محظوظا بقادة عسكريين من الطراز الرفيع من أمثال عمرو بن العاص،خالد بن الوليد، شرحبيل بن حسنة، القعقاع بن عمرو، عكرمة بن أبي جهل، وسواهم. كما بساسة يتمتعون بقدر عال من الخيال والشجاعة. معركة واحدة، اليمامة، كلفت أبا بكر أكثر من ٣٠٠ من أكابر المسلمين، منهم عشرات البدريين.

وخسر فيها عمر شقيقه زيداً، وفي لحظة حزن وفجيعة نحر ابنه عبدالله لأنه لم يمت كما مات عمه. حتى النساء والعبيد والأطفال ساهموا في الدفاع عن مشروع الدولة في الأيام الحالكة تلك[1].

كان بنو هاشم قد قاطعوا الخليفة لما يزيد عن نصف عام. يذهب مؤرخون كثيرون، ابن الأثير على سبيل المثال، إلى القول إن بني هاشم أعلنوا ولاءهم لأبي بكر بعد موت فاطمة (أي بعد حوالي نصف عام من تولي أبي بكر أمور الدولة). يمكننا القول إنهم خضعوا للسلطة الجديدة بعد أن رأوا بأسها وقدرة جيوشها على المناورة والحسم، وبعد أن يئسوا من قدرة الانقلابين على الوصول إلى المدينة. فقد كانوا يؤملون أن تتدحرج الفوضى وتصل العاصمة، أن تطيح بنظام أبي بكر، وتنصب عليا أو العباس حاكماً. فهم بنو هاشم الانقلاب الذي عمّ الجزيرة بحسبانه تصويتا لصالحهم، وأن العرب فعلت ذلك لأنها لا تريد حاكماً من خارج بني عبدالمطلب. سيقدم هذا التفسير أبرز مؤرخي الشيعة، وينظر إلى تلك الحروب باعتبارها مقاومة قام بها الذين سمعوا من النبي حديث الغدير. تحاشى المؤرخو غير المتشيّعين التعليق على اعتزال بني هاشم لحروب الدولة الإسلامية، الردة والفتوحات على السواء. يذكر البلاذري في فتوح البلدان، والمسعودي في مروج الذهب إن عمر بن الخطاب عرض على عليّ قيادة الجيش في معركة القادسية ولكن الأخير أبى ذلك وكرهه.

[1] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء الثاني، ص: ٣٣٤-٣٨٣

ثمة سكوت مريب، لدى كل المؤرخين، حول غياب علي وبنيه عن معارك العرب والمسلمين، وبالكاد نجد إشارة مهمة، بالغة الدلالة، عند ابن تيمية في مجموع الفتاوى "جميع الحروب التي حضرها علي بعد وفاة النبي ثلاثة: الجمل، صفين، والنهروان". وهي، كما نعرف، تلك الحروب التي ارتبطت بسعيه لتوطيد مملكته. في مجموع الفتاوى يصف ابن تيمية ما اشتهر من بطولات علي بأنها تشبه قصص عنترة والأبطال[1].

وبالعودة إلى قائمة العشرة المبشرين بالجنة، كما أوردتهم كتب الحديث، فقد اشترك علي بصورة مباشرة في قتل اثنين منهم (طلحة والزبير في موقعة الجمل)، وبصورة غير مباشرة في قتل الثالث (عثمان الذي قتله الأشتر ورجاله، وهم من سيكونون رجال علي في حروبه اللاحقة). كما كاد

[1] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، الجزء الرابع، ص. ٤٩١-٤٩٢. وهذا نص ما قاله رداً على سؤال عن حرب علي مع الجن، وحمله لحصن خيبر، وسواها. يقول ابن تيمية: **لم يبارز عليّ وحده قط إلا واحدًا، ولم يبارز اثنين**. وأما مرحب يوم خيبر، فقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "لأعطين الراية رجلًا يحب اللهَ ورسولَه، ويحبه اللهُ ورسولُه، يفتح الله على يديه" ، فأعطاها لعلي، وكانت أيام خيبر أيامًا متعددة، **وحصونها فتح على يد عليّ رضي الله عنه بعضها**. وقد روي أثر أنه قتل مرحبًا، وروي أنه قتله محمد بن مسلمة، ولعلهما مرحبان، **وقتله القتل المعتاد**، ولم يقده جميعه، ولا قدّ الفَرس، ولا نزل السيف إلى الأرض، ولا نزل لعلي ولا لغيره سيف من السماء، ولا مد يده ليعبر الجيش، **ولا اهتز سور خيبر لقلع الباب**، ولا وقع شيء من شرفاته، **وإن خيبر لم تكن مدينة وإنما كانت حصونًا متفرقة، ولهم مزارع**. ولكن المروي أنه ما قلع باب الحصن حتى عبره المسلمون، ولا رمي في منجنيق قط، **وعامة هذه المغازي التي تروى عن عليّ وغيره، قد زادوا فيها أكاذيب كثيرة، مثل ما يكذبون في سيرة عنترة والأبطال**. وجميع الحروب التي حضرها علي رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة حروب: **الجمل، وصفين، وحرب أهل النهروان**.

جيشه أن يفتك بعائشة ويسبيها، وهي زوجة النبي الذي بشره بالجنة. ما يعني أن ثلث قائمة المبشرين بالجنة قتلهم رجال علي، وسيصبح الرجل الذي يحتكر القائمة، أو هو إياها.

لماذا غاب عن حروب الردة؟ يجد علماء الشيعة في ذلك الموقف مادة ثمينة لشرح رؤيتهم للإسلام: انقلب العرب على الإسلام لأنهم رأوا أن السقيفة جاءت على حساب الغدير، وأن خلافة أبي بكر خيانة للإسلام[1]. كما لم يشارك في الفتوحات لأنها حروبا بقيادة مغتصب للسلطة، ولا جهاد بلا إمام[2]. وسيتردد الأمر على لسان جعفر الصادق شارحا موقف جده وموقف أحفاده من الفتوحات: لو كان خيراً ما سبقونا إليه.

إن أخطر مواجهة **بين الإمبراطوريتين العربية– البيزنطية** حدثت في اليرموك، فيها حشد العرب كل قادتهم وقبائلهم، وحشد الروم مقاتليهم من كل أوروبا وصولا إلى السويد. وبينما أصيب يزيد بن أبي سفيان، وكان أحد القادة، وحضرت هند إلى المعركة، إلى جوار زوجها وراحت تحرض الرجال على الصمود، كما سقط عكرمة بن أبي جهل وابنه ضمن القتلى العرب .. كان علي وأبناؤه في منازلهم في المدينة، غير آبهين بأنباء المواجهة التي ستغير شكل التاريخ. أدرك العرب معنى أن تكون لهم إمبراطورية، فانطلقوا ليدافعوا عنها، وشق خالد بن الوليد وجيشه

[1] جعفر المرتضى، **الصحيح من سيرة الإمام علي**. الباب الرابع: حروب وسياسات في عهد أبي بكر. ص. ٨٩-١١٤

[2] السيد الخوئي، **مصباح الفقاهة**، ١/٨٥٠.

صحراء العراق إلى الشام في مغامرة عسكرية قل لها نظير من أجل إسناد المعركة الأكثر حسماً. تختفي تلك المعركة من سيرة علي، لا مكان له في أي صفحة تخص حروب الإمبراطورية العربية. وبدلاً عنها تحرض ترّهات حصن خيبر، وأسطورة ذي الفقار.

كان علي رجلا بديناً، عظيم البطن، قليل المشي، أعمش العينين، وكان يمشي ثم يتوقف ليلتقط أنفاسه. نجد هذه الأوصاف عند: ابن حنبل، الصنعاني، الطبراني، البلاذري، ابن سعد، الأصفهاني، وغيرهم. هذه مواصفات رجل محدود الحركة، أبعد ما يكون عن الفارس. وقد وردت أيضا على لسان فاطمة حين أبلغها أبوها بخطبة علي، وكان عمره آنذاك ٢٧ عاما[1]. إن بنيانه الجسماني، وهو في شبابه، لا يعكس أي صورة عن محارب متمرس. وسيصبح مع تقدم السن أثقل، وسيوصف بأن له منكبين كمنكبي البعير. صورة تتواءم كليا مع ما نعرفه من تاريخه في الدعة والسكينة والنأي عن الحروب. فبرغم أن غزوات الرسول وسراياه تجاوزت المائة إلا أنه لم يمنح عليا القيادة سوى مرة واحدة: أمام أحد حصون خيبر، ٧ للهجرة. وتلك لم تكن حرباً،

[1] طائفة كبيرة منها من المحدثين والمؤرخين اتفقت على أن عليّاً كان **عظيم البطن، أعيمش النظر**، وهي الصفات التي تبعد الرجل عن صفة المحارب والفارس. **نجدها عن**: عبدالرزاق في المصنف، كتاب المغازي، حديث رقم ٩٥٠٠. والطبراني في المعجم الكبير، صفة علي بن أبي طالب، حديث رقم ١٥٤. والبلاذري في أنساب الأشراف، ص. ١٠٤. وعند أبي عاصم في الآحاد والمثاني، حديث رقم ١٦٨. وعند آخرين. **من المناسب أن نشير إلى أن البلاذري وعبد الرزاق عرفا بميلوهما إلى التشيّع. إن الحماس الشيعي لإثبات تلك الصفات المنفّرة بشخص عليّ يفسّره ما تقوله تلك المرويّات من أن الرسول فاوض فاطمة على قبول عليّ زوجاً بصفاته الجسدية التي لا تحبّها، بل تخجل منها أمام نساء قريش كما قالت، لقاء أن يكون لها نصيب الخُمس من أموال الأمة إلى قيام الساعة.**

بل حصارا ضرب على واحة في الصحراء محاطة بالمزارع كما نجد وصفها عند ابن تيمية في مجموع الفتاوى[1]. لم تكن خيبر معركة، كما قلنا، بل حصارا استمر لبعضة أسابيع وانتهى باستسلام يهود تلك الواحة بعد اشتباكات محدودة عند بعض الحصون. كان عدد حصون خيبر ٨، وهي قلاع متباعدة تفصلها أحراش ومزارع وأخاديد بركانية، كما تبين المستشرقة الإيطالية لاروا ڤاغليغيري في إنسكلوبيديا الإسلام[2]. كانت خيبر يسكنها زهاء عشرة آلاف يهودي، وكانت مشغلا كبيرا للمنسوجات، فضلا عن الزراعة، ولم يكن أهلها مجتمعا مقاتلاً.

ولأن علياً رجل بلا تاريخ عسكري فقد وجد مبجلوه في تلك الحادثة مناسبة لخلق أكثر القصص زيفاً في التاريخ: يقتل مرحباً ويرفع باب الحصن الثقيل بيده. قلنا إنها حصون عدة، ولم تكن ثمة معركة على الأرض، فأي باب رفعه؟ في مثل تلك الهوامش صنع عليّ لنفسه أسطورة المقاتل، وأردى فارس اليهود الشهير مرحب الذي أخاف الناس. وحتى الفارس مرحب هذا فإنه اشتبك مع محمد بن سلمة وسقط قتيلا على يديه، كما عند الواقدي وأحمد بن حنبل. أو هما مرحبان لقيا حتفهما على نحو عادي، كما يذهب ابن تيمية[3].

---

[1] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، الجزء الرابع، ص. ٤٩١-٤٩٢

[2] نشرت الأكاديمية والمستشرقة الإيطالية لاورا ڤاغليغيري موسوعتها "**إنسيلكوبيديا الإسلام**" في الفترة بين ١٩١٣—١٩٣٨، وتعد من أهم المصادر الأكاديمية في حقل الدراسات الإسلامية.

[3] المصدر السابق

من مكان آخر، في معركة الخندق، تخرج أسطورة أخرى عن علي ابن أبي طالب. تذهب القصة إلى القول إن خمسة فرسان من قريش بقيادة عمرو بن عبد ود يجتازون الخندق ويخيفون المسلمين فيتصدى لهم علي رغم معارضة النبي وخوفه وتوجسه. قال لعلي: إنه عمرو يا علي، فيرد عليه علي: ليكن عمراً. كي يقتل علي بطل اليهود مرحب في خيبر لا بد للقصة أن تقول إن مرحباً هذا كان قد هزم أبا بكر وعُمرَ في اليومين السابقين. ومن أجل أن تكتمل بطولته في الخندق فلا بد للقصة أن تأخذ هذه النهاية: فقال عمر بن الخطاب لعلي هلّا سلبته درعه فلم يصنع العرب أفضل منها. يبدو عُمر داخل هاتين القصتين لصاً مشغولا بالسلب في الخندق، وعاجزاً مهزوماً في خيبر. الرمزية السياسية للقصتين جلية، مهمتهما اغتيال عمر في ساعة تنصيب علي بطلاً. بيد أن هذه القصة ذهبت بعيدا وأصابت النبي نفسه، ذلك أن صحابته الذين لطالما قالوا "كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله" رأوه هذه المرة وهو ينكمش ويتقي بعلي.

وردت قصة عمرو بن عبد ود مرسلة لدى المؤرخين وكتّاب السير، وفي تفاصيلها تشابه كبير مع حكاية مرحب، خصوصاً في وصف النزال بين علي والخصم، فكأن الرجلين واحد. لا وجود لبطل عظيم الشأن في حياة قريش اسمه عمرو بن عبد ود. وتتأكد تفاهة القصة حين يقال إنه خاض معركة بدر شابا، وفي الخندق كان قد بلغ الثمانين من العمر، رغم أن المعركتين تفصلهما ثلاثة أعوام. كذلك حين تقول القصة إن بن عبد ود طلب من علي أن يتنحى عن المواجهة

ويرسل أحداً من أعمامه ليبارزه، وأعمامه كلهم ماتوا قبل ذلك عدا العباس كان لا يزال في مكة بين أهلها. كأن بن عبد ود القادم من قريش لا يعرف ذلك[1].

على أن تلك القصة شهيرة لدى كتاب السير لا المحدثين، وللألباني تعليق ذكي حولها في الجزء الأول من سلسلة الأحاديث الضعيفة: لا أعرف لها طريقاً مسنداً صحيحاً، وإنما هي من المراسيل والمعاضيل[2]. تأسست أسطورة الفارس الاستثنائي على قصتين مخترعتين، كلتاهما خرجتا من معركتين لم يدر فيهما قتال (خيبر، الخندق)، وبقي المحارب البطل غائباً عن المواطن التي جرت فيها حروب طاحنة. ثم خرج من التاريخ حاملاً سجل بطولة لا تدانيه السيرة العسكرية لخالد بن الوليد.

ومعه غاب أبناؤه، فما من ذكر لهما سوى في رواية بلا أسانيد لابن خلدون، في العبر، عن اشتراك الحسن والحسين في فتح أفريقية سنة ٢٦ هجرية. كما حكاية يتيمة للطبري عن اشتراكهما في فتح طبرستان. وما يجعل الروايتين بلا قيمة هو أن الطبري تجاهل قصّة ابن خلدون، وابن خلدون تجاهل قصّة الطبري. سيحتفي علماء الشيعة بهذا التناقض كي لا تأتي القصة على أساسهم العقائدي: إن غياب علي وأبنائه عن الفتوحات كان موقفا احتجاجياً ودينياً كونها عملاً عسكرياً لا يقوده إمام معصو. في نهج البلاغة، وهو كتاب ألفه الشريف الرضي وأخوه

[1] **انظر**: الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب المغازي والسير، حديث ٤٣٨٥

[2] الألباني، **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، الجزء الأول، ص: ٥٧٦

مطلع القرن الخامس الهجري، نجد زهاء ٢٤١ خطبة لعلي، أشهرها الشقشقة، وفيها يحتج على أولئك الذين "أخروه عن مقامه". لقد حدثت تلك الفتوحات، إذن، خارج مقامه، ما جعله غير معني بها. يمثل نهج البلاغة المانفيستو الهاشمي الأشهر في التاريخ، حتى وإن كانت نسبته إلى علي لا تصحّ علمياً ولا عملياً. فهو، في النهاية، رؤية آل البيت للتاريخ. في الكتاب نفهم عزوف الطالبين عن الإسهام في المهام الجسيمة للدولة، كالحرب، ذلك أنها وقعت وعلي وآل بيته خارج المقام[1]. في نهج البلاغة، في الخطبة الشقشقيّة، نقرأ "**لقد تقمّصها ابن أبي قحافة،** وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير. فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا"[2]. غير أن صبره لم يطل كثيراً، إذ سرعان ما أشعل البلاد حروباً خلال عامين، وانشطرت الأمة منذ تلك الأيام حتى الآن، وصرنا بإزاء أمتين ودينين وحروب تهدأ لتستيقظ. الصمت المريب تجاه غياب علي وأبنائه عن حروب الخلافة الإسلامية يترك الأسئلة مفتوحة، ولكنه أيضا يسوق إجابات كثيرة حول ما الذي دفع علياً فجأة إلى السفر إلى العراق وخوض ثلاثة حروب في عامين ضد خصوم مبجلين في الإسلام وهو الذي، طيلة ٢٥ عاما، لم تلفت معركة واحدة انتباهه، بما في ذلك كبريات المعارك: القادسية مع إمبراطورية فارس، واليرموك مع الإمبراطورية البيزنطية.

---

[1] **انظر**: نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية.

[2] **انظر**: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة١/١٥١

خلافة على ظهر النمر

حين علم علي بن أبي طالب بأن عائشة وجيشها قد بلغا البصرة دعا إلى النفير العام في المدينة المنورة فاستجاب له أربعة من كبار الصحابة، ويقال ثلاثة: أبو الهيثم بن التيهان، أبو قتادة الأنصاري، وزياد بن حنظلة. اختلف المؤرخون في اسم الشخص الرابع. وفي المجمل حشد جيشاً قدّره الطبري في تاريخه بسبعمائة مقاتل، وعند ابن كثير في البداية والنهاية نحواً من تسعمائة.[1] هذه الصدمة المبكّرة ستفقد عليّاً الإحساس بالأمن وستدفعه إلى أحضان قطاع الطرق وتجعل منه أول زعيم يصل إلى السلطة على أكتاف المتمرّدين. تكرر هذا الخذلان مع علي مرّة أخرى بعد معركة صفّين حين دعا إلى الخروج بعد فشل عملية التحكيم غير أن أحداً لم يستجب له. وبعيد مقتله زحف جيش معاوية إلى العراق وعجز الحسن بن علي عن حشد ما يكفي من المقاتلة، قبل أن ينشق قائد جيشه، عبيد الله بن العبّاس، ويأخذ معه بضعة آلاف ليلتحق بجيش معاوية. وعبيدالله هو ابن عمّ النبي، وأحد كبار الهاشميين. بقي للحسن فلولٌ مبعثرة من الرجال الذين وعدوا أباه بالذهاب إلى الشام. كان الحسن أقل الهاشميين تشبّثاً بالحق الإلهي، وقد ضرب موعداً طويلاً مع الدنيا فمنحته ما يؤنسه من النساء والمال والجاه. دفعته الحقائق الأرضية إلى الاستسلام أمام جيش معاوية، والعودة بغنيمته الفردية إلى المدينة.

[1] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع ص. ٢٦١

بالعودة إلى الحديث عن خروج علي من المدينة، يدنو الحسن من والده ويعاتبه "أمرتك يوم قُتل -يقصد عثمان- أَلا تبايَع حَتَّى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر". كان الحسن أكثر قدرة على تخيل المآلات الكارثية لمغامرات الطالبيين كما سنوضح فيما بعد.

عجز عليّ عن تخيّل شكل المعضلة التي تورط فيها، فالدولة التي صارت إمبراطورية مترامية الأطراف لا يمكن أن تؤخذ في مداهمة ليلية بسيوف بضعة آلاف من المتمرّدين. كما أن تجاهل إرادة شعوب وأمم تلك الدولة العملاقة وإلغاء حقهم السياسي بالكامل بحجة أن "**الأمر أمرُ أهل الْمَدينة**"[1]، كما حاجج عليّ، أفقرَ سلطته إلى المشروعية السياسية. الحاكم – وهو هنا علي- ليس نبيّاً مؤيداً من السماء، بل رجلاً من السياسة، والسياسة عملية جماعية تقوم على التوافقات والرضا. كان عليّ يخلط بين نفسه والنبي، ويرى لنفسه من واجب الطاعة والقداسة ما كان للنبي ذاته. لم يكن عليّ يملك النباهة الكاملة لفهم تلك المعادلات، وحين حذره ابن عبّاس من مغبّة الذهاب في ما عزم عليه راح يردّ قائلاً إنه لن يتخلى عن السيف. ومما عقد طريقه أكثر هو السيف نفسه، ذلك أنه كان قد هجره لربع قرن من الزمن، لم يقد فيها معركة ولم يشترك في مبارزة واحدة.

الحاكم الجديد لبلاد مترامية الأطراف، تجاوزت مساحتها ستة ملايين كيلومتراً مربّعاً، يلغي في طرفة عين الحق السياسي لسائر الأمم والشعوب التي صارت جزءاً من الدولة/ الإمبراطورية،

[1] الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، الجزء الرابع، ص. ٤٥٦

متجاهلاً رأي أهل اليمن والشام ومصر وغيرها. ثمّ هو يفكر بالذهاب إلى الشام بجيش لا يبلغ الألف رجل، قبل أن يغيّر وجهته إلى العراق. تبدو رواية ابن كثير حول نقاش الأب والإبن أكثر ثراء ودلالة. عليّ يلتفت إلى ولده وينهره قائلاً "أما مبايعتي قبل مجئ بيعة الأمصار فكرهت أن يضيع هذا الأمر". **إن الأمر أمر المدينة**، قال عليّ، ثم يختم نقاشه مع ابنه قائلاً "فإذا لم أنظر فيما يلزمني في هذا الأمر ويعنيني، فمن ينظر فيه؟[1]". مسألتان تلفتان الانتباه هُنا: حاكم جديد يصل إلى السلطة لأول مرّة، يفسّر استعجاله طلب البيعة بينما البلاد غارقة في الهرج والمرج بخوفه من أن يضيع الأمر. مؤكداً: أنه اقتحم السلطة لأنها مسألة تلزمه وتعنيه. كان بالمدينة آنذاك عشرون ألفاً من صحابة رسوله[2]، وليس فيهم من أحد يرى السلطة تعنيه سوى علي بن أبي طالب. يؤكد ذلك ما حدث لاحقاً من عزوف كبار الصحابة عن مصاحبته إلى معاركه التي عزم عليها. كان الحسن يرى المآلات، قال لوالده"تقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك فيها"[3]، ورأى الأب تفاهة في ما يقوله الولد "لا تزال تحنّ عليّ حنين الجارية".

وهو يترك المدينة خلف ظهره، أو وهي تدير له ظهرها، اتخذ قرارين خطرين للغاية، على مرحلتين: المرحلة الأولى تعيين قثم بن العبّاس والياً على مكة، وتمّام بن العبّاس والياً على المدينة. فقد علي الثقة بنواتي الإمبراطورية الإسلامية فوضع عليهما ولدي عمّه، وهما غلامان ممن ولدوا بعد الهجرة،

---

[1] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع ص. ٢٦٢

[2] الجاحظ، **كتاب العثمانية**. ص. ١٠-١١

[3] الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، الجزء الرابع، ص. ٤٥٦

وكانا يفتقران إلى كل ما يحتاجانه لحكم قلب الإمبراطورية، عدا أنهما ابنا عم الحاكم. صدمت المدينة عليّاً كما صدمته مكة، ووجد نفسه وحيداً، يحمل على كاهله مشروعية ناقصة، وبيعة تسلّمها من اللصوص. في الطريق نزل بالربذة[1] إلى الشرق من المدينة المنورة، وجاء إليه الناس من بني أسد وطيء ومناطق أخرى. غادرها وذهب شمالاً، صار يملك جيشاً من بضعة آلاف ونزل في ذي قار جنوبي العراق[2]. من هناك دشّن مراسلاته مع أحد كبار الصحابة المبجّلين، وكان يمثّل تحدياً استراتجيّاً لما له من وزن أخلاقي ومعرفي داخل المجتمع المُسلم، فضلاً عن خبرته السياسية والعسكرية. اسمه أبو موسى الأشعري وسبق له أن حكم البصرة في زمن عُمر، ثم صار حاكماً للكوفة منذ أيام عثمان. عليّ يريد الكوفة بعد أن نزلت عائشة بجيشها في البصرة، يعرف أن له بها أنصاراً ولكن حاكم البلاد الأشعري غير راض عن تحركات عليّ العسكرية. وقف محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر أمام أبي موسى يحملان خطاباً من علي فلم يجدا جواباً يفيدهما في شيء. وفي المساء أناس من مناصريهم على أبي موسى يعوضون عليه الطاعة لعلي، فقال "كان هذا بالأمس". ربما كان يقصد: قبل أن يقرّر عليّ خوض الحروب. أغضب هذا القول الولدين اللذين أرسلهما علي فشتماه كما يروي ابن كثير. كان أحدهما ربيب علي والآخر ابن أخيه، وسنعرف فيما بعد كيف ضلل الفتيان عليّاً في مواطن أخرى وتسببا في خسارته لمصر.

---

[1] **الرَّبذة** مدينة تاريخية أثرية، تقع في شرق المدينة المنورة وتبعد عنها قرابة ١٧٠ كم. وهي إحدى محطات القوافل على درب زبيدة الممتد من العراق إلى مكة المكرمة. (المصدر: **ويكيبيديا**)

[2] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع ص. ٢٦٣

غضب أبو موسى ونهر الرجلين قائلاً "والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بد من قتال فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا ومن كانوا"[1]. فهم عليّ ما يرمي إليه أبو موسى الأشعري بقوله "حيث كانوا ومن كانوا". حين تلقى الجواب التفت إلى مالك الأشتر وقال له "أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض في كل شيء اذهب أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدت" كما في الكامل في التاريخ[2]. المعترَض في كل شيء، أو المعرّض في كل شيء في رواية ابن كثير[3] كان شوكة الميزان في جيش علي، والعصا في دولاب أي تسوية سياسية. مثل أبي موسى الأشعري وقف آخرون، فلا يمكن مشاهدة زعيم التمرّد الأشتر قائداً لجيش الخلافة، من وجهة نظر فقهية على الأقل. فالمقتول ظلماً، بصرف النظر عن كونه خليفة، ذهب دمُه هدراً، وعليّ يرفض أن يُقاد به أحد. المواجهة مع أبي موسى الأشعري لم تكن باليسيرة، وما كان ممكناً تجاوزه. في الكرّة الأخرى أرسل عليّ ابنه الحسن صحبة عمّار بن ياسر. ذاعت قصة التحاق عمّار بالمتمرّدين الذين ثاروا على الخليفة. ما إن وصل الرجلان الكوفة حتى دنا منهما رجلٌ يقال له مسروق الأجدع، كما يروي ابن كثير، وسأل عماراً "علام قتلتم عثمان؟" فقال عمّار: على شتْمِ أعراضنا وضرب أبشارنا، فقال الأجداع: والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به. ولما رآهما أبو موسى الأشعري قال لعمّار "يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين

---

[1] المصدر السابق. وهو أيضاً عند ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء الثالث، ص. ٢٢٧

[2] المصدر السابق.

[3] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع ص. ٢٦٣

عثمان قتلته؟" فقال عمّار: لم أفعل، ولم يسؤني ذلك"[1]. لا شك في أن عليّاً كان محاطة بقادة التمرّد الذين قتلوا عثمان أو تمالؤا على قتله. أو بلغة عمّار بن ياسر: من لم يسؤهم قتلُه.حدثت موقعة الجمل، أراد علي أن يحرج خصميه اللدودين، فسأل طلحة: ألم تبايعني؟ فقال الرجل: نعم، والسيف على عنقي[2]. كان ذلك سيف الأشتر ورجاله، ممن نصبوا عليّاً ملكاً.

في المرحلة الثانية، وبعد فراغه من معركة الجمل، اتخذ قراراً أخطر من سابقه: معاقبة المدينة ومكّة. لقد أعلن نقل عاصمة الإمبراطورية الإسلامية إلى الكوفة، وهي مكان في التقدير الإسلامي آنذاك بلا هوية. ليس للكوفة سابق تاريخ مع الرسول، وكانت هذه الحقيقة كافية لتخوف الناس من جعلها عاصمة. أفصح عن ذلك التخوف عبد الله بن سلام، الإمام الحَبر كما يسميه الذهبي، حين اعترض عليّاً وقال له "لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدا"[3]. المتشنّجون الذين ركبوا إلى جوار علي ودفعوه إلى الحرب سبّوا عبدالله بن سلام، يقول ابن كثير. أسس عمر بن الخطاب وقائده سعد بن أبي وقّاص الكوفة لتكون معسكراً استراتيجياً على الحدود الشرقية للدولة الجديدة. في المراسلات التي دارت بين عمر وسعد كان الأول حريصاً على أن لا تصبح عُمراناً، وأن لا تتجاوز وظيفتها كمنطقة عسكرية، وأمره بأن يلتزم بالقاعدة الذهبية:

---

[1] المرجع السابق. وهي عند الثقفي في **الغارات**، الجزء الثاني ص: ٩٢٣. وعند ابن الأثير في **الكامل في التاريخ**، ٣٨/٢ وغيرهم.

[2] ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، الجزء الأول، ص: ٩٥. كذلك: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء الثالث، ص: ٢٣٩. كما عند: ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص: ٢٦٨.

[3] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع ص. ٢٦١

إن العرب لا يصلح لها إلا ما يصلح للإبل من البلدان[1]. لم يسمح عُمر بأن تبنى فيها منازل من الطين إلا بعد أن أبلغه القائد أن حريقاً التهم بيوت القصب، فحدد الخليفة عدد البيوت المسموح ببنائها: ثلاثين. بالنسبة للمؤسس: لا بد أن تحتفظ بصفتها كمعسكر. والكوفة تعني، في أبرز معانيها، المكان الذي ينزل فيه الجند ويجتمعون. لم بتن في الكوفة بيوت من الآجر سوى في الحقبة الأموية. ما الذي جعل عليّاً يتخذ هذا القرار المزلزل، متخليّا عن مدينة الرسول، ومتجاوزاً مكة التي وصفها القرآن بأم القرى؟ للمدينتين حضورهما الديني المهيب في الجزيرة، قبل وبعد الإسلام، وفيهما يعيش العقل الإسلامي. في المدينة، كما يحاجج الإمام مالك دائماً، دُفن عشرة آلاف من أصحاب النبي. ما الذي فعله علي؟ جرياً وراء الحكم أخذ الدولة إلى وكر التمرّد. ثمة أدلّة تاريخية كثيرة على أن أهل الكوفة خذلوا عليّاً بعد صفّين، ثم خذلوا الحسن في عام الجماعة، وتخلوا عن الحُسين سنة ٦١هـ، وتركوا زيد بن علي بن الحسين وأسلموه حين اشتد القتال[2]. يذهب عبدالقاهر البغدادي بعيداً في وصفه لأهل الكوفة، قائلاً إن روافضها موصوفون بالغدر والبخل، وأنهما عرفا بهاتين الصفتين حتى إنه ليقال أبخل من كوفي وأغدر من كوفي[3].

---

[1] الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الثالث، ص. ١٤٤-١٥٠

[2] محمد إبراهيم الفيومي، **الفرق الإسلامية وحق الأمّة السياسي**. القاهرة. دار الشروق. ١٩٩٨. ص. ١٠٤-١٠٥

[3] عبدالقاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق** ص. ٣٧.

في عشرينيات القرن الهجري الأول توزّع الجند على أرض الكوفة بحسب بلدانهم، وتوزعت حوالي ١٢ قبيلة يمنية على ١٢ مطرح، وكانوا أغلبية. كل قبيلة أقامت لها مسجداً، وكانوا رجالاً بلا نساء[1]. وعندما انتقل الحكم من عمر إلى عثمان صارت الكوفة إلى بؤرة توتر. فهي أرض المقاتلة، وستصير أرضاً للفوضى، ومنها ستخرج موجات العصيان والتمرّد من الخوارج وحتى القرامطة، وغيرهم. إنها، بامتياز، أرض النمر.

حين التقى عليّ وعائشة، ودارت رحى الحرب بينهما، أدرك عليّ ورطته. فهو وإن تسمى بأمير المؤمنين إلا أنه، مقارنة بسابقيه، يحظى بأدنى قدر من الإجماع، وعلى كاهله دم خليفته. ولولا المقاتلون الذين هبوا لنجدته من الكوفة لما كان قادراً على إدارة الحرب، إذ تشير مصادر تاريخية كثيرة — سنية وشيعية– إلى تمكّن خصومه من حشد عدد أكبر من المقاتلين. ثمّة من يضع عدد جنوده بحدود العشرين ألفاً، وكان قد غادر المدينة بما دون الألف. كانوا حشداً من القبائل، المتمرّدين، الكوفيين، السبئيين، ومتدينين غلاة الطبع سينشقون عنه بعد أقل من عامين ليخلقوا الظاهرة التي عرفت بالخوارج. كان عليّ ينظر إلى ذلك الخليط الهجين من الناس وينابيهم "أنتم أعواني على الحق، بكم أضرب المُدبر"[2]. وكان المُدبر، في تقدير علي، هو دائماً خصم مسلم أدبر عن الحق، والحق في التعريف الهاشمي نظير السلطة. انحصرت معركة الرجل، كما تصفها

[1] الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الثالث، ص. ١٤٤–١٥٠

[2] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء الثاني، ص. ٢٤٠

كتب شيعته، في حرب الجهات الثلاث: الناكثين، القاسطين، المارقين. أي: أولئك الذين لم يقبلوا ادعاءه للخلافة، ويرون أنه من العار أن يعلن نفسه رئيساً بينما كبار القوم، من الفقهاء وعتاولة الصحابة وزوجات النبي، وزعماء العشائر، لا زالوا يتدارسون مسألة دم الخليفة.

عند نقطة معينة توقفت معركة الجمل، فأصيب المقاتلون الكوفيون بإحباط، وتشكلت بذرة تمرّد داخل جيش علي، وأخذت تتسع. عاتبه مناصروه لأنه لم يسمح له بسبي عائشة ومن معها، ولأنه لم يمض في المعركة حتى الأخير. كانت حرباً ضنّت عليهم بالفيء، المحرك الأعظم لمقاتلة الكوفة. اعتمد عليّ في حشده للناس على خطاب الحق، بالمعنيين الديني والأخلاقي، فانضم إليه المقاتلون وقد تيقّنوا أن قائدهم قد وضع أهدر دم خصومه وأموالهم. عقب انتهاء المعركة أوقف عليّ عملية السلب، ومنع سبي القتلى. إذ ذاك احتج عليه المقاتلة قائلين "كيف تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم؟"[1]. تعقدت الأزمة مع رجاله حين ذهب أبعد من ذلك وراح يبشّر بعضهم بالنّار بعد أن تمكنوا من قتل خصومه[2]. نشأت موجة شك في أتون معركة الجمل وما بعدها، وكانت دوافعها أخلاقية. إذ تلاعب عليّ بالمسألة الأخلاقية دافعاً رجاله إلى الاعتقاد بأن الخصوم شرّ محض، وهي المعضلة التي لن يتمكن من حلّها حين يعرض عليه معاوية الصلح

---

[1] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص٢٤٤. **كذلك**: الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الخامس، ص٢٢٣.

[2] ذكر أحمد بن حنبل في كتاب **فضائل الصحابة** (٢/ ٧٣٦ – ٧٣٧) : جاء قاتل الزبير يستأذن، فجاء الغلام فقال هذا قاتل الزبير، فقال عليّ: **ليدخل قاتل الزبير النار**. و جاء قاتل طلحة يستأذن فقال الغلام: هذا قاتل طلحة يستأذن، فقال عليّ : **ليدخل قاتل طلحة النار**.

في صفّين، بعد الجمل بعام واحد. فقد كان قبول عليّ للصلح ضربة قاضية لمصداقيته عجز رجاله، المتدينون منهم على وجه الخصوص، عن استيعابها وهضمها أخلاقيّاً. وإن كانت المسألة لا تعدو كونها صراعاً حول السياسة فلماذا الحرب إذن، حاججه الحفّاظ والفقهاء وحتى المتمردون. ومن قبل، في الجمل، كان يوزّع النار على رجاله الذين ينجحون في قتل خصومه. شيئاً فشيئاً لاحظ الجنود أن الأمور ليست شديدة الوضوح في عقل قائدهم، أو أنه لا يدري ما يريد. وهي الرؤية التي ستكتمل مع انتقال السلطة إلى الحسن. فقد اعتمد خطاب قتلة عثمان على تجريم محاباة الحاكم لأسرته في مسألتي المال والنفوذ السياسي، الخطيئة نفسها التي أتى عليها عليّ مبكّراً، وأكملها بنقل السلطة الكاملة لولده. أمرٌ لم يجرؤ عثمان حتى على التفكير فيه.

كان عليّ يعلم تمام العلم أنه لا يملك جيشاً وإنما يركب ظهر النمر. ولكي لا تنفجر القنبلة في منزله فقد أخذ جيشه وذهب لقتال معاوية، ٣٧ للهجرة، مؤملاً أن تمنحه تلك الحرب ما ضنّت به معركة الجمل: السلب للرجال، والعرش له. آلت صفّين إلى هزيمة كبيرة لمشروع علي بن أبي طالب المتمثل في بسط نفوذه على الشام. فحتى تلك اللحظة كان عليّ ينعت نفسه بأمير المؤمنين، وكان معاوية يقدّم نفسه بوصفه والياً على الشام بقرار من خليفة شرعي، وهو الآن ولي دم القتيل. أن تنتهي معركة صفّين إلى صيغة سلام أو هدنة لهو نصر بالنسبة للرجل الذي كانت طموحاته حتى تلك الساعة دفع جيش علي إلى الكوفة ومنعه من اقتحام الشام. وبالنسبة

لعلي فتلك كانت هزيمة نكراء، إذ تأكد لأول مرّة أنه سيكون خليفة على نصف البلاد أو أقل من نصفها، وذلك هو الكابوس الذي كان يخشاه.

في طريق عودته يضطرب الجيش، يتشاتم الجند[1]، يتقاتلون، ثم يحدث شيء خطير. انشق حوالي اثنا عشر ألف مقاتل من جيش علي وذهبوا إلى حروراء، بالقرب من الكوفة، وسيطلق عليهم الحرورية أو الخوارج. رفضوا النتيجة التي آلت إليها الحرب، وأدركوا بحسهم الخاص إن دولة معاوية في طريقها إلى الاستقرار وأن عليّاً أضعف من أن يعيد الحق إلى نصابه، وفقاً لتعريفهم لمسألة الحق.

عرف الخوارج منذ اليوم الأول بالإرهاب والتطرف، لكن الحقيقة أنهم كانوا الجيش الذي قاتل به علي في الجمل وصفّين، ولأجلهم نقل العاصمة إلى الكوفة. كان عليّ هو المؤسس العملي لجيش الخوارج، دربهم على القتال، منح أفعالهم المشروعية الأخلاقية، ضرب بهم يمنة ويسرة، نعتهم بأفضل النعوت، وانتمى إليهم. وعندما صارت مملكته أصغر من تُقسهم على فريقين، بني هاشم والمرتزقة، تخلوا عنه. أزمة جديدة تحيط بالرجل الذي ترك مدينته راكضاً وراء الحكم، وإزاءها ألقى خطابه الشهير متوسلاً بقاء المقاتلة الخوارج إلى جواره، داعياً إياهم إلى العودة مجدداً لمحاربة الشام بعد فشل عملية التحكيم، قال لهم "لا نمنعكم الفيء ما دامت أياديكم إلى أيادينا" [2]. كان علي يعلم نوايا رجاله: الفيء. لا بد وأنه كان يتذكّر الجدل الذي أثاروه في واقعة الجمل: كيف تحلّ

[1] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء الثالث، ص. ٣٢٢

[2] الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الخامس، ص.٦٤

لنا دماؤهم ولا تحلّ لنا أموالهم. آنذاك لم يكن لديه من حل أخلاقي للمعضلة التي خلقتها الحرب. الآن، والحرب تضيّف عليه الخناق، أعلنها بشكل صريح: أحل لكم الفيء ما دامت أياديكم إلى أيادينا، كما يروي الطبري في تاريخه. أرسل الوسطاء ووعدهم بحرب جديدة ضد معاوية، وأنه سيكون بمقدورهم أن يمارسوا هوايتهم في السلب والنهب، غير أنهم رفضوا عروضه الأخيرة. ما كان يصلح للناس بعد صفّين ليس هو ما كان يناسبهم قبلها. لقد فقدوا ثقتهم بقيادته وحتى بإسلامه، وقبل أن تضع الحرب أوزارها كانت جماعة من جنده قد حكمت بكفره بما أنزل الله.

يروي ابن الأثير في الكامل أن عليّاً، وهو عائد من صفّين، التقى عبد الله بن وديعة الأنصاري فدنا منه وسلم عليه وسايره فقال له ما سمعت الناس يقولون في أمرنا؟ قال الأنصاري: منهم المعجب به ومنهم الكاره له. فسأله علي: قول ذوي الرأي؟ أجابه الأنصاري "يقولون إن علياً كان له جمع عظيم ففرقه، وكان له حصن حصين فهدمه"[1]. أخبره عبدالله بن وديعة ربما بما كان غائباً عنه من ذهنية العرب، قال له لو أنك قاتلت بمن بقي معك حتى تنتصر أو تهلك لكان ذلك هو الحزم. عاد من صفّين لا منتصراً ولا هالكاً، وقدّر رجاله ذلك بالذل، أو: الحصن المهدم، كما هي كلمات بن وديعة الأنصاري. تفهم العرب الحرب على طريقتها، وما فعله في صفّين لم يكن ضمن رؤية العرب للحرب لا أخلاقياً، إذ حاول النجاة قبل أن يكسب شيئاً،

[1] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء الثالث، ص. ٣٢٣

ولا عسكريّاً، فها هي النتيجة تعقّد كل شيء. غير أن ما سيزيد الأمر سوءاً هو تبرير علي بن أبي طالب لقبوله التحكيم "لقد هممت بالإقدام على القوم فنظرت إلى هذين قد ابتدراني – يعني الحسن والحسين– ونظرت إلى هذين استقدماني – يعني عبد الله بن جعفر ومحمد بن علي– فعلمت أن هذين إن هلكا انقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الأمة، وكرهت ذلك وأشفقت على هذين أن يهلكا"[1]. خشي عليّ على أولاده وأولاد أخيه، وأمر بإيقاف الحرب. على الجانب الآخر كان معاوية يلتقي بكبار رجاله ويبلغهم نيته الدخول في عملية سلام مع خصمه كي لا يجد الروم والفرس فرصة للانقضاض على الشام والعراق. للرجلين دوافع مختلفة للسلام، ولا بد أن شعبي الرجلين كان على دراية بالطريقة التي يفكر بها القائدان. على الأقل هذا ما تفصح عنه كلمات بن وديعة الأنصاري وهو ينقل رأي العامة إلى أميرهم.

حدثت حرب النهروان بين علي والمنشقين من جيشه، الخوارج. استطاع أن ينزل بهم هزيمة نكراء وهم الذين نصبوه ملكاً، حالوا دون هزيمته أمام جيش عائشة، ومنعوه من الجيش القادم من الشام. كان معاوية خصماً سياسيّاً، وإن حاول عليّ تلوين صراعه مع معاوية بالصبغة الدينية، غير أن معركته مع الخوارج كان شأناً آخر، فقد وضعه الأخيرون في درجة المارق عن الدين. سيرد عليهم، هو ومن بقي معه، أيضاً بإخراجهم من الدين. الحرب التي وقعت بين الطرفين في حروراء كانت ضارية انتهت بفناء معسكر الخوارج، فقد كانت حرباً دينية خالصة.

---

[1] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء الثالث، ص. ٣٢٣– ٣٢٤. كذلك عند ابن مزاحم المنقري في **وقعة صفّين**، ص. ٥٣٠. وعند الطبري في **تاريخ الرسل والملوك**، الجزء الخامس، ص. ٦١

أرض الضرب:

عزل عليّ نفسه داخل تلك الأرض المخيفة، وأحاط نفسه بالقتلة والمهووسين. وهناك نشأت، تحت إشرافه، أول بؤرة للتوجيه المعنوي في التاريخ الإسلامي، أو ما سيسميها مالك بن أنس "أرض الضرب"[1]، أي المكان الذي تضرب فيه الأحاديث وتزور فيه الأحكام، ويُفترى فيها على الإسلام.

بعد فشله العسكري برز ضاربو الحديث ورواة المناكير، كما نبغ أشهر رجال وضع الروايات في التاريخ. وهكذا صار سيفه "ذو الفقار" السيف الذي نزل به جبريل من السماء. سيسمح علي بالمزايدة أكثر، وسيُقال: هو السيف الذي جاء بهم آدم وكان مصنوعاً من ورق الشجر. وسيقول الكوفيون أكثر من ذلك: السيف الذي حمله نوح على سفينته. أحاط عليّ نفسه بالوضّاعين بعد أن فشل المتمردون في تثبيت حكمه وتوسيع مملكته، قبل أن يتفرقوا عنه. نشأت بورصة أحاديث تدور في جزء منها حول فضائل سلطان الكوفة، وبلغوا حد تأليه الرجل في حياته . حوْل عاصمة علي بن أبي طالب، الكوفة، سيقول الإمام الزهري "يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود في العراق ذراعاً"[2]، وسيتحفر فقهاء الإسلام كثيراً وهم يُرون الكوفة تحرّف شكل الدين كليّا تحت إشراف حاكمها كرّم الله وجهه. فالحديث يقفز من شبر إلى ذراع، أي يصير ضعفين،

[1] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٨/ ١١٤

[2] الزواوي، **مناقب الإمام مالك**، ص. ٥٧

ما يعني أن الإسلام ذاته قد ادخلته الكوفة في مأزق عسر، وستكون العقيدة أولى الضحايا وسيلحق بها الفقه. وتأسس لدى الفقهاء عرف يقول إن أحاديث العراقيين إن لم يكن لها أصل في الحجاز فلا قيمة لها[1]. كان الإمام مالك حاسماً في الموقف من الدين القادم من العراق، سواء أكان فقهاً أم حديثاً، يقول: أنزلوا أهل العراق منزلة الكتاب لا تصدقوهم ولا تكذبوهم[2]. سيعود مالك بن أنس ليخوض حرباً لا هوادة فيه مع الرواية الكوفية، رواية عاصمة علي بن أبي طالب: كانت العراق تجيش علينا بالدنانير والدراهم فصارت تجيش علينا بالحديث[3]. صار حالها كما يخبرنا ربيعةُ الرأي، أو ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وكان قد ترك الكوفة خلف ظهره "رأيتُ قوماً حلالنا حرامهم، وحرامنا حلالهم، كأن النبي الذي أرسل إلينا ليس النبي الذي أرسل إليهم"[4]. وكان ربيعة الرأي هو شيخ أبي حنيفة. الصدمة التي تعرض لها عليّ في المدينة جعلته يلقي بنفسه في أحضان المرتزقة، ويقبل أن يكون قائداً لهم. وكلما تململوا عنه صعد على منبره وصاح "يا أهل الكوفة، أنتم سنام العرب" كما يروي المجالسي في بحار الأنوار.

بعد مقتل علي فقدت الكوفة مركزها الوهمي، وانتقلت العاصمة إلى مدن لها تاريخ. صحيح أن الكوفة شهدت فترة من النمو، على صعيد الفقه والأدب ، ولكن حقيقة أنها مدينة علي أبي

---

[1] الثعالبي، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، الجزء الأول، ص. ٣١٢

[2] الزواوي، **مناقب الإمام مالك**، ص. ٥٧

[3] الخولي، أمين، **مالك بن أنس**، الجزء الأول، ص. ١٦٢

[4] العلواني، طه جابر، **أدب الاختلاف في الإسلام**، فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ص. ٨٠

طالب، وأن جسده مدفون فيها، كانت كفيلة بأن تجعلها في حالة مستدامة من اللاستقرار على مر التاريخ. سيمر بها الرحالة ابن جبير الأندلسي في القرن السادس الهجري وسيجدها كما ينبغي لمدينة هاشميّة أن تكون "**قد استولى الخراب على أكثرها والغامر منها أكثر من العامر**"[1]. نأت الخلافة والسياسة عن الكوفة، وبقيت المدينة في مكانها مركزاً لأبرز ظاهرتين في التاريخ: التمرد، وتزوير التاريخ. ومن رجال تلك المدينة أبو مخنف، لوط الغامدي، الذي ملأ الدنيا قصصاً وحكايات حتى وصفه الذهبي بالإخباري التالف[2]. استطاع الرجل (توفي سنة ١٥٧ هجرية) أن يتسلل إلى كتب المؤرخين والمحدثين، وأن يقدم عرضاً موسّعاً لأحداث القرن الأول على طريقته، ناقلاً عن المجهولين وعن شخصيات لا توجد سوى في كتبه. ونجد له عند الطبري حول أحداث زهاء ١٠٨ حكاية. ولم يكن أبو مخنف سوى رأس جبل الجليد في بلدة كانت احتكرت الرواية عن فضائل العترة وعبقرية رجالها. ولولا الكوفة لما وجد جعفر العاملي مادة تكفي لتأليف موسوعة من ٥٣ مجلداً تحمل عنوان "الصحيح من سيرة الإمام علي". ولا يوجد في سيرة علي سوى أمر واحد صحيح: أن أغلب ما يُقال عنه مختلق.

[1] السيد البراقي، تاريخ الكوفة، ص: ١٢٨

[2] ميزان الاعتدال – الذهبي – ج ٣ – الصفحة ٤١٩

من يقتل الخليفة وله كذا وكذا

كان محمد بن أبي بكر شاباً في السادسة والعشرين من عمره حين جعله عليّ حاكماً على مصر. توفي والده أبو بكر الصديق وهو رضيع، فتزوجت أمه أسماء بنت عميس بالرجل الذي سيصبح الخليفة الرابع. نشأ "محمد" في كنف علي، وكان شديد الإخلاص والطاعة لزوج أمّه وولي نعمته، حتى إنه كان يقلّده في مسائل كثيرة، ولا يفعل شيئاً يعرف أنه سيغضب والده بالتبني. وعندما هبّ المتمردون من الأمصار التحق بهم محمد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر وآخرون. استمر الحصار شهراً كاملاً، وقيل أربعين يوماً كما في البداية والنهاية لابن كثير. وحين علم المتمرّدون أن عثمان أرسل إلى معاوية في الشام يستنجد به زادوا في حصارهم ولم يعد بمقدوره الخروج إلى الصلاة. يذكر ابن كثير، ناقلاً عن الطبري، أن عثمان استدعى الأشتر النخعي للتفاوض. وحين رآه سأله من كوّة في داره "يا أشتر ماذا يريدون؟" فأجابه الأشتر "إنهم يريدون منك إما أن تعزل نفسك عن الإمرة، وإما أن تفتدي من نفسك من قد ضربته أو جلدته أو حبسته، وإما أن يقتلوك". وفي رواية، يقول ابن كثير، أنهم طلبوا منه أن يعزل نوابه عن الأمصار ويولي عليها من يريدون هم[1]. كان الأشتر يتحدث نيابة عن المتمرّدين، طلبه عثمان للتفاوض لما يعلمه من دور الرجل في تلك الفوضى. ما طرحه الأشتر على عثمان كان صعب التحقيق، فهو يطلب من الحاكم الأعلى أن يقف في ميدان عام ليجلده الناس، أو أن يترك الحكم له

[1] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص: ٢٠٢. نجد هذا الحوار بين الرجلين أيضاً عند: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، الجزء ٣٩، ص: ٤٠٤. وعند ابن سعد في **الطبقات الكبرى**، الجزء الثالث، ص: ٧٢.

ولأصحاب ليحددوا مستقبل بلاد مترامية الأطراف. أجابه عثمان مستغرباً "وأي شئ إلي من الأمر إن كنت كلما كرهتم أميراً عزلته، وكلما رضيتم عنه وليته؟ والله لئن قتلتموني لا تتحابوا بعدي، ولا تصلوا جميعاً أبداً، ولا تقاتلوا بعدي عدواً جميعاً أبداً"[1]. من الخيارات التي طرحها الأشتر على عثمان أن يقبل بأن يُراق دمُه، والأخير يزجره محذراً من أن قتل الخليفة سيكون من شأنه أن لا تجتمع الأمّة على كلمة واحدة من بعد. الصلاة جميعاً، التي ستخسرها الأمّة بموت الخليفة، هي الكلمة السياسية الواحدة، أي نظام الحكم الذي يجمع الناس تحت سقف واحدة. لم يجد عثمان من ينوب عنه في تلك المفاوضات، وكان يخرج من وقت إلى آخر وينادي في الناس سائلاً عن أشخاص بعينهم، كعمّار أو طلحة، ولا يجيبه منهم أحد. حين استفحل الأمر جعل يذكّرهم بأيامه مع رسول الله، وما فعله للإسلام، تحديداً: أنه اشترى بئراً للمسلمين وأرضاً ليقام عليها مسجدهم، كذلك تجهيزه لجيش العسرة. لم تفلح تلك المحاولات في زعزعة صفوف المحاصِرين[2]. آلت المفاوضات مع الأشتر إلى طريق مسدود، وكان الأشتر واضحاً في شروطه الثلاثة التي طرحها. في الأثناء تلك اقتحم محمد بن أبي بكر الدار صحبة ثلاثة عشر رجلاً، كما يروي ابن كثير في البداية والنهاية. أخذ محمد بلحية عثمان وجعلَ يشدّها حتى سُمع وقع

[1] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص: ٢٠٢

[2] ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، الجزء ٣٩، ص: ٤١٠. كذلك: ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص: ١٩٨– ٢٠٢

أضراسه[1]. يروي ابن سعد في الطبقات الكبرى أن محمداً بن أبي بكر بعد أن أمسك بلحية عثمان بادر إلى طعنه في جبينه بمشقص كان في يده، ثم أجهز عليه رجاله الذين اقتحموا معه الدار[2]. محاولات تبرئة محمد بن أبي بكر من العملية القتل تخلي يديه من عملية الطعن المباشر.غير أن قيادته لمجموعة الاقتحام، مبادرته بالانقضاض على الخليفة وسحله من لحيته، إهاناته اللفظية لعثمان، اتهامه بأمور ترفعه إلى درجة الخائن الأكبر، ثم انقضاض أعضاء خلية الاقتحام على جسد الخليفة، تحت بصر محمد وكان قائداً لمجموعة الاقتحام، هو سيناريو تكاد تتفق عليه أبرز المصادر التاريخية. وهي كذلك عند الطبري، ابن كثير، ابن سعد، ابن عساكر، الطبراني، وسواهم. يذهب الطبراني بعيداً، يقول إن عثمان حين رأى محمدَ بن أبي بكر مقبلاً عليه قال له "أنت قاتلي. قال محمد: وما يدريك يا نعثل؟ قال: لأنه أتى بك رسول الله يوم سابعك ليحنكك ويدعو لك بالبركة، فخريت عليه"[3]. حتى وإن استنكر ابن كثير هذه الرواية إلا أنها تفيدنا عن الصورة التي بات الناس يرسمونها لمحمد بن أبي بكر. وذلك ما سيدفع ابن تيمية للقول إنه كان رجلاً لا فضيلة له.

[1] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص: ٢٠٦. كذلك عند ابن سعد في **الطبقات الكبرى**، الجزء الثالث، ص: ٧٣

[2] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص: ٢٠٧

[3] المرجع السابق.

كان عليّ نائياً عن الخليفة، بحث عنه عثمان ولم يجده، وكان بمقدوره – بما له من قربى من النبي– أن يساند رئيس الدولة بدلاً عن أن ينتظر عثمان النجدة من البصرة والشام. بدا لأبسط الناس أن الأحداث إن انتهت بمقتل الخليفة فإن الأمة ستدخل في حرب أهلية، ولا يوجد ما يدل على أن عليّاً كان قد تخيّل المآلات على هذا النحو، كما لو أن أنه كان معنياً بأمر آخر. ربما لم يكن عليّ راغباً في إنقاذ الخليفة الذي كان مقتله يتأكد يوماً وراء يوم. وربما إنه لم يكن يحظ بالاحترام والتبجيل اللازم لدى سائر الناس، لا عند المتمرّدين ولا لدى من لزموا الحياد. خصوصاً وأنه حتى تلك اللحظة لم يكن يكن قد مارس أي ضرب من القيادة، لا العسكرية ولا السياسية، ولا حتى الدينية. الرجلان، الأشتر ومحمد بن الأشتر، سيصبحان أهم رجال علي بن أبي طالب على الإطلاق. سيقود الأشتر جيشه، ويتولى محمد حكم مصر.

حدثت الجريمة وقتل الخليفة، وانطلق المتمرّدون في المدينة يأخذون البيعة لعلي. كانوا زهاء ألفي مسلّح، كما يذهب ابن كثير في البداية والنهاية. وكان كبار الصحابة في الثغور أو في الحج، ومن بقي منهم في المدينة لا يذهب إلى المسجد إلا والسيف معه[1].

قيل لعلي إن ذلك لا يكفي وأن عليه أن يتريث في الأمر لسببين: لأن بيعة أهل المدينة لا تكفي، ولأن القتلة لم يأخذوا عقابهم بعد. رفض علي تلك المقترحات قائلاً إن الأمر أمرُ المدينة[2]، هي من تقرّر. كانت واقعة في قبضة المتمرّدين، ساد فيها الخوف والهلع، كما يلاحظ ابن تيمية

[1] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص: ٢٢٠

[2] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص. ٢٦٢

في منهاج السنة النبوية. ما يعني أن بيعة أهلها حدثت تحت الإكراه، وهذا ما سيردده طلحة حين يتمكن من الإفلات.

ماجت الجزيرة والأمصار بالخبر، وتتابعت الوفود على علي من سائر البلاد يطلبون منه إحالة القتلة إلى القضاء، احتراماً لدين الله، ووأداً للفتنة. يضعنا ابن تيمية في منهاج السنة النبوية أمام الصورة التي أصبحت عليها المدينة عقب مقتل عثمان:

"وأما عليّ رضي الله عنه فإنه بويع عقيب مقتل عثمان رضي الله عنه والقلوب مضطربة مختلفة، وأكابر الصحابة متفرّقون، وأحضر طلحة إحضاراً حتى قال من قال إنهم جاءوا به مكرهاً، وأنه قال بايعت واللجُّ – أي السيف– على قَفيّ. وكان لأهل الفتنة شوكة لمّا قتلوا عثمان، وماج الناس لقتله موجاً عظيماً. وكثيرٌ من الصحابة لم يبايع عليّاً كعبدالله بن عُمر، وكان الناس معه ثلاثة أصناف: صنف قاتلوا معه، وصنف قاتلوه، وصنف لم يقاتلوا معه، فكيف يجوز أن يقال في علي بمبايعة الخلق له" [1].

إزاء هذا الوضع اللاعب أصدر عليّ قراراً بتعيين ربيبه محمد بي أبي بكر حاكماً لمصر، ما اعتبر مكافأة له على اقتحامه مع عصابته لدار الخليفة وإهراق دمه. لم تكن أيام "محمد" في مصر بالمجيدة، فالعثمانيّة والدولتيون هناك ناصبوه العداء، وكان يقودهم اليمني الشهير معاوية بن

[1] ابن تيمية، **منهاج السنّة النبوية**، الجزء الأول، ص٥٣٤-٥٣٥

حديج، الرجل الذي سيقود تمرّداً ناجحاً على ابن أبي بكر انتهى بمقتل الأخير وخروج مصر من قبضة الهاشميين إلى قبضة الأمويين. كان ابن حديج قائداً عسكرياً مرموقاً أسهم في حروب البحار في عهد معاوية، وعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية العربية غرباً وشمالاً. ناصب ابن حديج عليّاً العداء، ولم يكف عن لعنه، وكان يبرر ذلك بقوله إنه كان أساس الفتنة التي أزهقت آلاف الأرواح، ومزقت الأمة الواحدة. ويوماً ما سيلتقي الحسن ابن علي في المدينة وسيهدده الأخير قائلاً إنك لن ترد على أبي الحوض[1]! ولا يوجد، في التاريخ، ما يدل على أن ابن حديج اكترث لما يقوله الحسن، فقد كان سمع من قبل أن المرء يرد الحوض على محمد لأنه نبي.

أما الرجل الثاني الذي عينه عليّ حاكماً على مصر فكان اسمه مالك بن الحارث الأشتر، وكان قاتلاً محترفاً وزعيم عصابات من الخيالة والصعاليك، وكان يمنيّاً. نفي الأشتر من حواضر عديدة في العراق والشام، وعندما ضاقت عليه السبل ذهب إلى عثمان، الخليفة الثالث، وأعلن توبته عن الفوضى. كان أناركياً بامتياز، لا يخضع لأي سلطة لا يكون هو على رأسها. يصفه عموم المؤرخين بطالب السلطة، والحقيقة أنه كان عدواً لكل سلطة حتى إنه غضب في وجه علي بن أبي طالب عندما ولى ابن عمه على البصرة، ونهره قائلاً: علامَ قتلنا الشيخ إذن؟ يقصد عثمان.

[1] المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء الثامن، ص: ٦٥٠. وعند ابن أبي الحديد في **شرح النهج**، الجزء الثاني، ص: ٣٣.

انتقل الأشتر من العراق إلى المدينة ضمن حشد من المتمرّدين، وفي سياق تاريخي معقد تمكن ومن معه من قتل الخليفة وفرض حاكم جديد. ما فعله الأشتر كان سرّاً مفتوحاً تجنّب المؤرخون السنّة الانتقال من رصده إلى تأويله. على أن بعضاً من أبرز علماء الزيدية، مثل المؤيدي[1]، قالوا في مؤلفاتهم بوضوح إنّ عليّاً شارك في تدبير عملية قتل الخليفة وكان "لسافكي دمه مآبا"، أي مأوى. في كتابه "لوامع الأنوار" جاء المؤيدي بقصيدة شعرية نظمها الهادي بن إبراهيم[2]، وسيلقبه المؤيدي بنجم العترة الطاهرة وبحر العلوم الزاهرة. في القصيدة يرد الهادي على من قال إن عليّاً كان عوناً للخلفاء، وأن مقتل عثمان أحزنه. تذهب القصيدة إلى القول، صراحة، إن عليّاً وفر المأوى لقتلة عثمان، أن القتلة كانوا من أنصار العترة، وأنّ عليّاً أسدل على نفسه النقاب ساعة ذهب أصحابه لقتل الخليفة. قدّم المؤيدي لقصيدة الهادي قائلاً "إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحراً".

[1] **مجد الدين بن محمد المؤيدي** (١٩١٤ – ٢٠٠٧): أبرز علماء الزيدية في القرن العشرين، ألّف عدداً من الأعمال أبرزها "لوامع الأنوار في جوامع العلوم والآثار".

[2] **الهادي بن إبراهيم ابن الوزير** (١٣٥٧ – ١٤١٩م): من أبرز علماء الزيدية في اليمن في القرن الخامس عشر الميلادي، تنقل بين الحواضر في اليمن والحجاز ومات في ذمار. له عدد كبير من المؤلفات، منها **هداية الراغبين إلى مذهب العترة الطيبين**.

عليّ خالف الخلفاء فيما	زعمتم أنه فيه أجابا
ولو كان الذي فعلوه حقّاً	لما حضروا سقيفتهم وغابا
وما سبب التقاعد عن عتيقٍ[1]	إذا كانت خلافته صوابا
و قلتم فى الوصيّ لنا مقالا	و لم تخشوا من الله العقابا
و بايع لابن عفانٍ، زعمتم	وتابعه و لان له الجنابا
فلِمْ فى قتل عثمانٍ تأبّى	و أغدف يوم مقتله النقابا؟
و لِمْ قتلته أقوامٌ و كانوا	لحيدرة و عترته صحابا
ولِمِ ردّ القطائع من يديه	وكان لسافكي دمه مآبا[2]

بعد عامين سيدرك علي أنه تسرّع في منح مصر للشاب محمد بن أبي بكر، إذ جاءته الأخبار أن أهل تلك البلاد يرفضون الرجل تطيّراً بصنيعه مع الخليفة، وأنهم قد يمالئون معاوية ويفتحون له الأبواب. اتخذ علي قراراً جديداً: تولية مالك الأشتر حاكماً على مصر وعزل محمداً. غير أن الأشتر مات على تخوم مصر، قيل شرق بالعسل، وقيل بالسم، وقيل غير ذلك.

[1] **عتيق:** من أسماء أبي بكر الصديق

[2] مجد الدين المؤيدي، **لوامع الأنوار**، الجزء الثاني، ص: ١٤٢-١٤٣

استمر محمد بن أبي بكر حاكماً على مصر إلى أن اقتحمها رجال معاوية الأشداء ووضعوا حدّاً لمملكة آل البيت في مصر، إلى أن داهمتها الفاطمية في القرن الرابع الهجري، قادمة من الغرب هذه المرّة. كان الأشتر ومحمد بن أبي بكر رجلي علي بن أبي طالب في الفوضى، وكان أهل بيته حكاماً للأمصار من اليمن إلى الكوفة. وكانت تلك إشارة مبكّرة عن تخيل الرجل لمسألتي الدولة والسلم الأهلي. مرّة أخرى أعطى عليّ مكافأة عظيمة لرجل آخر اشترك في قتل الخليفة: مالك الأشتر. ومالك الأشتر، كما تذكر مصادر عديدة[1]، هو الذي هاجم بغلة صفية، زوجة النبي محمد في المدينة المنورة دافعاً المرأة إلى الصراخ فزعاً: ارجعوني لا يفضحني هذا الرجل. وفي تاريخ المدينة ينقل ابن شبّة النميري عن كنانة مولى صفية "كنت أقود بصفية بنت حيي لترد عن عثمان رضي الله عنه، فلقيها الأشتر فضرب وجه بغلتها حتى مالت وحتى قالت: ردوني لا يفضحني هذا الكلب"[2].

سيذهب الأشتر بعيداً ويهاجم بعير زوجة أخرى من زوجات النبي، وهي عائشة، في معركة الجمل على تخوم العراق. تجاوزت جرأة الرجل تخيير الخليفة بين أن يضطجع في الميدان ليركله الناس أو أن تزهق روحه. فقد قفز على حدود الممكن في التمرد والعنف ووقف أمام نساء النبي وانهال على رواحلهن ضرباً حتى كاد يفضح الأولى في المدينة ويقتل الثانية في البصرة. ذلك

---

1 انظر: ابن حجر العسقلاني، **الإصابة**، الجزء السادس، ص. ٢٦٨. كذلك عند ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، الجزء الثامن، ص: ١٢٨. وعند الذهبي في **سير أعلام النبلاء**، الجزء الثاني، ص: ٢٣٧.

2 ابن شبة النميري، **تاريخ المدينة**، الجزء الرابع، ص: ١٣١١

الكلب، كما نعتته أم المؤمنين صفيّة، صار الجنرال الذي يقود حروب علي ويوطّد له دولته. كتاب السير يتحدثون عن رجل خالص الشر، حزّ أعناق رجال فضلاء في العراق والحجاز دونما أسباب. وكان كلما نزل في مدينة أثار الفوضى ضد حاكمها، مرّة بحجة أن الحاكم صلى الفجر سكراناً، وأخرى لأنه من قبيلة فلان، وثالثة لأنه لا يحكم بما أنزل الله . وصفه علي، في خطابه إلى أهل مصر، بسيف الله المسلول. وهو، أي علي، الذي قال لخلصائه إنه سكت عن جرائم الأشتر حماية لنفسه وأهله بعد أن سمعه يقول لأصحابه إنه سيلحق عليّاً بعثمان إن لم يكن رهن إشارته. قال علي، كما يروي الطبري: اشتروا مني صمتي. أي أذلوني حتى صَمَتّ. والحقيقة أن علياً قبل ذلك التعاقد بكل مخاطره.

يذكر الطبري وآخرون كيف أن غلاماً حدثاً اسمه بن خنيس كاد أن يتسبب في مذبحة في حضور والي الكوفة سعيد بن العاص. فبينما القوم يتحدثون عن الأرض والجود إذ قال بن خنيس لوالي الكوفة "وددت أن هذا الملطاط لك" يعني تلك الأرض من الفرات، فكاد الأشتر وجماعته يفتكون بالغلام وأبيه هادرين "تتمنى له من سوادنا"، أي من ملكنا[1]. لقد أصبحت أرض الفرات ملكاً له ولعصابته، ولا يجوز معها حتى التمني. لا توجد في سيرة الرجل فضائل ولا بطولات باستثناء اتفاقه مع آل علي بن أبي طالب على قتل خصومهم وإزاحة السلطة إليهم مقابل أن يحكم من خلالهم، أو من خلفهم. برر عليّ لخاصته قراره إرسال الرجل حاكماً على مصر بالقول

[1]الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الثالث، ص: ٣٦١. وهو عند ابن الأثير في **الكامل في التاريخ**، الجزء الثالث، ص: ١٣٨

إنه أراد أن يبعده عن مصادر قوته في العراق والجزيرة حتى لا يمثل تهديداً له. قبل ذلك وهو يلتقي الوفود بعد مقتل عثمان كان علي يساررهم قائلاً إنه لا يقدر على تسليم مالك بن الحارث الأشتر إلى القضاء خوفاً من قبيلته ومن الصعاليك الذين إلى جانبه، وكان المؤرخون يلتمسون له العذر قائلين: كان يتقي فتنة بفتنة. استطاع الأشتر أن يضع رجاله القتلة والمجرمين حكاماً على الأمصار من خلال قررات استخرجها من علي بن أبي طالب. ومن الطبيعي أن الحكم من خلال العصابات لم يصمد كثيراً أمام منظومة أخرى منافسة تحكم من خلال التشاور والنقاش ولجان من الحكماء. وهكذا تساقط المتمردون واحداً تلو الآخر، إلى أن قتل الحاكم نفسه في نهاية المطاف. قبل مقتله كان علي بن أبي طالب قد صار حاكماً على براري وقبائل وعصابات، بينما كان الأمويون يبنون إمبراطورية على أنقاض بيزنطة.

إن هذه المقالة تحاول أن ترسم صورة واضحة الملامح لرجلين من أهم رجال علي بن أبي طالب: مالك الأشتر، ومحمد بن أبي بكر. ونحن نظنّ أن صورة كهذه، كما قدمناها، ستساعدنا على فهم ما الذي حدث في الأيام الأخيرة من العام 35 للهجرة، وكيف تطورت الأحداث على ذلك النحو المأساوي الذي **شقّ أمة محمد إلى فريقين متصارعين حتى الآن**، كما توقّع عثمان بن عفان وهو ينظر إلى المتمرّدين من كوّة في جدار منزله:

"والله لئن قتلتموني لا تتحابوا بعدي، ولا تصلوا جميعاً أبداً، ولا تقاتلوا بعدي عدواً جميعاً أبداً"[1].

[1] ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص: ٢٠٢

إمام فائض عن الحاجة

عليٌّ حكاية فائضة عن الحاجة بالنسبة لعموم البشر، ولكنه موضوع مركزي في حياة العترة في كل زمان ومكان. ليس لأنه الصحابي الجد الذي ينتمي إلى أول مجتمع إسلامي في التاريخ. بل لأسباب تتعلق بما تقول العترة إنه حقّه الخالد في حكم الأرض. وهو حقّ ينتقل إلى الأحفاد على مرّ الأيام. علي الحقيقي شخص اعتيادي في الحرب والسلم والمعرفة، أما علي الأسطوري، النسخة الوهمية من الرجل، فقد ملأ الدنيا ضجيجاً. كل حكاية عن علي هي قصة خرافة، والخرافة يراد لها أن تملأ فراغاً، ولكن ليس داخل التاريخ العربي- الإسلامي حيث ملأت الكتب الأنهار، وحيث الفقهاء، الشعراء، والفلاسفة يسلبون الشرف والسلطة من الخلفاء والأمراء.

سيحاول علي شريعتي في "محن علي الثلاث" أن يشرح معنى استحقاق علي لدرجة إمام: إنه النموذج الأعلى الذي كانت البشرية على طول تاريخها تشعر بالحاجة إليه. سرعان ما سيناقض نفسه ويقدم دليلا عمليا على أن العرب استغنت عن "الإمام"، ولم تجد من حاجة إليه. شريعتي، المستنير، سيقول إن عليا ربط نفسه بالسلاسل (مجازا) ولزم منزله ربع قرن تاركاً حقه في قبضة مغتصبيه كي لا يفتن أمة محمد[1]. يتجاهل شريعتي حقيقة ما جرى للأمة العربية وعلي مكبل في السلاسل بين نسائه وجواريه: وضع العرب أقدامهم على ثلث العالم القديم. وعندما فك سلاسله

[1] علي شريعتي، **علي في محنه الثلاث**. ترجمة: علي الحسيني، إبراهيم دسوقي. دار الأمير، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١. صفحة ٩١.

وخرج من منزله قاتل العرب بعضهم بعضاً. في الكتاب نفسه سيعترف شريعتي: كانت محنة علي أن العرب لا ترى له ذلك الحق. أن يفهم العرب الإسلام على ذلك النحو، بوصفه عدالة ومساواة بين كل البشر، لهي فضيلة تاريخية للآباء المؤسسين للحضارة العربية، وقفزة عالية إلى الأمام تجعل من فهم علي للإسلام، مقارنة برؤيتهم، انقلاباً على الدين نفسه.

النهاية المأساوية لعلي في الكوفة، ٤٠ هجرية، دفعت الناس للتعاطف معه وذويه، فانضم إلى ترسانته الدعائية التي أسسها في الكوفة. عرفت الكوفة، في عهد عليّ وما بعدها، بأنها الدار التي تُضرب فيها الأحاديث وتفترى فيها القصص، أو دار الضرب[1]. حشد جديد من أمصار عدة، سيملؤون كتب المغازي والسير بخرافات البطل والفقيه والفدائي. سيستمر تزوير التاريخ وسيفاجئنا الشيخ جعفر العاملي في القرن الواحد والعشرين بمؤلف من ٥٣ جزءا بعنوان "الصحيح من سيرة الإمام علي". تتوالد الأكذوبة الأعظم في التاريخ وتستقل بنفسها كدين متكامل (نبي، رسالة، شهادة، فداء، كتاب، أتباع، ومنهاج)، وستعززها النهاية التراجيدية للحسين في كربلاء، لتتوفر للدين الجديد كل عناصره التأسيسية وفي مقدمتها الفداء والاستشهاد.

---

[1] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٨/ ١١٤. **النص**: قال منصور بن سلمة الخزاعي: كنت عند مالك، فقال له رجل: يا أبا عبد الله أقمت على بابك سبعين يوماً حتى كتبت ستين حديثاً. فقال مالك: ستون حديثاً. وجعل يستكثرها؛ فقال الرجل :ربما كتبنا بالكوفة، أو بالعراق، في المجلس الواحد ستين حديثاً. فقال **مالك** : وكيف بالعراق؟ **دار الضرب**، يُضرب بالليل وينفق بالنهار. كذلك: **الثعالبي**، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الجزء الأول، ص. ٣١٣

غير أن هذا الدين المنشق سيبتلع الأديان كلها وليس الإسلام وحسب، وسيصبح نهاية للتاريخ كما هي الصورة في مؤلفات الكليني، المجلسي، والعاملي. رغم حجمها الضخم إلا أن الخرافة، التي ابتلعت كل شيء، عجزت عن أن تكون مكتفية بذاتها كدين، وأصرت على التحليق داخل أجواء الإسلام لتخوض معه صراعاً مستداماً على مستوى الأصول التأسيسية والبنية الفلسفية. بقي علي، لا التشيع، يمثل أحد أهم الاختراقات المدمرة للخطاب الأخلاقي والعقلي للإسلام، تحديداً على صعيد العدل والمساواة وحرية الفرد. وكان "دين علي" قد برز مبكرا على مستوى الاصطلاح منذ القرن الأول الهجري، كما يلاحظ أمير معزي[1] المتخصص في تاريخ التشيع.

لسنا بصدد نقاش التشيع كعقيدة، بل لنتحدث عن قصة زائفة في التاريخ العربي اسمها: علي كرم الله وجهه. ولأنها كذلك فقد استدعى الأمر إسنادها بكل ذلك النتاج الضخم من الحكايا التي تفتقر إلى أبسط مفاهيم الرواية والدراية، أي لما هو علم في مقاييس ذلك الزمن. في نهج البلاغة نجد مئات الخطب والمواعظ، معزولة كلها عن أبسط قواعد العلم، لا أسانيد ولا مراجع. ما من خطبة واحدة من خطبه كلها أحيلت إلى مصادرها التاريخية. كتاب مستقل بنفسه، تخلّق بعد مقتل علي بأكثر من أربعة قرون. فمثلاً خطبته التي بدأها بقوله "أما بعد فإني أحذركم الدنيا

[1] أمير معزي: باحث مُعاصر، فرنسي من أصل إيراني، متخصص في علوم الشيعة الاثناعشرية. عرف من خلال عمله الأشهر: الدليل الإلهي في المذهب الشيعي المبكر، ١٩٩٤.

فإنها حلوة خضرة، حفّت بالشهوات وتحبّبت بالعاجلة" هي خطبة نسبها عدد كبير من المؤرخين إلى قطري بن الفجاءة.[1] إن نسبة الكتاب إلى علي بن أبي طالب يعدّ فضيحة علمية ثقيلة.

طرحت علينا كتب المدرسة، في طفولتنا، هذا السؤال: لماذا لم يلتق علي وخالد في معركة؟ ولقنتنا الإجابة: لأنهما لو التقيا لقتل عليّ خالداً، ولكن الله كان يدخر خالداً لما هو أعظم. ولا ندري، حتى الآن، لماذا أدخر الله خالداً لم هو أعظم وليس عليّاً. لنعد إلى لحظتين في مدينة النبي، ولنأخذ صورتين جويتين لها. الأولى استقبال المدينة لخبر وفاة خالد بن الوليد في الشام (٢١ هجرية). تصدم المدينة، ويعلو نواح النسوة ويهرعن إلى الشوارع، ويخبر عمر، خصمه منذ الطفولة، بذلك فيقول "ما عليهن أن يرقن دموعهن على أبي سليمان"[2]. لتكتمل الصورة سنذهب إلى البداية والنهاية لنسمع وصفا موجزا وعبقريا لذلك المحارب العربي القديم: لم يقهر في جاهلية ولا إسلام[3]. هكذا يكثف مؤرخ جسور سيرة رجل غني عن الخرافة والتضليل. يمكننا وضع حدود الحقيقة والخرافة على هذا النحو: يقود خالد زهاء مائة معركة تاركاً وراءه إرثاً عسكرياً مهيباً. بينما تُصنع لعلي حكايات عملاقة من صراعه مع أبطال وهميين في مصادمات بلا

---

[1] **ممّن أوردوا الخطبة منسوبة إلى قطري بن الفجاءة:** الجاحظ في البيان والتبيين ٢: ١٢٦ – ١٢٩. ابن عبد ربه في العقد الفريد ١: ١٤١. القلقشندي في صبح الأعشى ١: ٢٢٣. الدينوري في عيون الأخبار ٢: ٢٥٠. و النويري في نهاية الأدب ٧: ٢٥٠.

[2] نقله **الذهبي** في سير الأعلام ١: ٣٨٣، **وابن عبد البر** في الاستيعاب ١ : ٤٠٩ ، **والحاكم** في المستدرك ٣ :٣٩٧ **وابن الأثير** في أسد الغابة ١ : ٥٨٨. **وابن عساكر** في تاريخ دمشق ١٦:٢٧٨.

[3] ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء السابع، ذكر من توفى سنة ٢١ للهجرة. صفحة ١٢٨

حروب. إن مقارنة بين المجد الذي حمله علي من غزوة الخندق – وكانت مواجهة لا حرب فيها – يبزّ كل ما أنجزته جيوش عمر بن الخطاب الأربعة في معركة اليرموك، أخطر مواجهة بين اليوم والعرب في التاريخ. يمكن للخرافة أن تبتلع الحقيقة، ومن الممكن لأي قارئ للتاريخ أن لا يجد أثراً لمعركة اليرموك لدى مؤرخي العترة كأنها لم تحدث. فلا فتى إلى علي ولا سيف إلا ذو الفقار، تقول الخرافة[1].

الصورة الثانية مقتل علي. تتلقى المدينة النبأ بتوجس، لا نساء في الشوارع، لا نواح، ولا إحساس بالفقد. فالرجل الذي سلب المدينة مركزها وذهب مع المرتزقة وقطاع الطرق ليساكنهم على تخوم خراسان كان بالنسبة لمدينة الرسول قد مات منذ زمن. سيحدث شيء رهيب بعد زهاء عشرة أعوام، وستخرج المدينة على بكرة أبيها في جنازة الحسن بن علي، ذلك الذي ترك أحلام أبيه في العراق وعاد إلى المدينة تائبا ومهزوماً. عن تلك الجنازة المهيبة، جنازة الإبن التائب، يقول ابن كثير في البداية والنهاية: وقد اجتمع الناس لجنازته حتى ما كان البقيع يسع أحداً من الزحام[2].

كل قصة عن علي هي قصة خرافة، وقد برزت أعظم الخرافات في حياته وتحت سمعه وبصره. تحدثنا سابقا عن عزلة الرجل منذ أن قرر أن يبني ملكه على أكتاف قطاع الطرق. فمالك

[1] قال عنه ابن تيمية في **منهاج السنة** ٥: ٧٠ "من الأحاديث المكذوبة باتفاق أهل العلم والحديث". وقال عنه ابن الجوزي في الموضوعات١: ٣٨٢ "هذا حديث لا يصح".

[2] ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء الثامن، ص. ٤٨

الأشتر، وكان أبرز قادة الهجوم على عثمان بن عفّان، تزعّم دعوة الناس لمبايعة علي ثم حدّد ل من يبقى من ولاة عثمان على الأمصار ومن يبقى في مكانه. يروي اليعقوبي في تاريخه قائلاً: "وعزل علي عمالَ عثمان عن البلدان خلا أبي موسى الأشعري، كلمه فيه الأشتر، فأقره"[1].

يمكن فهم خرافة علي بوصفها استراتيجية وجودية بالنسبة للرجل، ومحاولة لخلق فضاء قوة ناعمة خارج حدود مملكته في العراق. فضلاً عن رغبة الرجل في تشكيل درع واق ضد المثقفين والشعراء الذين أمسكوا بتلابيبه ورفضوا شرعيته المبنية على الصدمة والرعب. فعندما خرجت عائشة من مكة تريد البصرة، وقد بلغها أنها الحاضرة التي رفضت خلافة علي، فقد خرج معها من مكة خلق كثيرون[2]. كانت الضفة الأخرى عامرة بالخصوم الكبار، وكان ذلك تحديّاً غاية في الصعوبة. كانت ليلة من أهم أبرز شاعرات ذلك الزمن، انحازت إلى جانب الخليفة المغدور وكتبت قصائد تنادي فيها معاوية بأخذ الثأر، قالت:

فانهض معاويَ نهضةً تشفي بها الداء الدفينا

أنت الذي من بعده ندعـوا أمير المؤمنيـــنا

[1] اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، الجزء الثاني ١٧٩

[2] المرجع السابق

شارك حسان بن ثابت، بما له من وزن أخلاقي وفني، مع غيره من الشعراء والمثقفين في مساءلة علي، يقول في قصيدة طويلة:

فقد رضينا بأهل الشام نافرة وبالأمير وبالإخوان إخوانا
يا ليت شعري، وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليٍّ وابن عفانا[1]

واجه الشعراء، وهم القوة الضاربة آنذاك، علياً بقصائدهم التي تكيل المديح للخليفة الراحل وتشير ضمنا أو علانية إلى القاتل. كما ساهمت النساء المثقفات في ذلك الموقف الاحتجاجي الواسع. يتذكر علي جيداً، وهو تائه في الكوفة بين المرتزقة وقطاع الطرق، موقف إنتلجنسيا المدينة ومكة، وسيرد على طريقته: إطلاق العنان لمُحترفي الضرب. لنسم بعض شعراء تلك الطبقة الثقافية ممن اقتربوا شعرياً من الحدث الرهيب، اغتيال الحاكم: كعب بن مالك، زينب بنت العوام، أيمن بن خزيمة، الوليد بن عقبة، أيمن بن فاتك الأسدي، وسواهم[2]. أشار ابن كثير، دون إعطاء تفاصيل، إلى أن هناك شعراء سروا وفرحوا بمقتل عثمان، غير أننا لم نقف عن خبر أو تفصيل عن تلك الفئة.

[1] الطبري، تاريخ الطبري، الجزء ٣، ص. ٤٤٩. كذلك عند ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء السابع، ص: ٢١٩.

[2] البداية والنهاية، الجزء السابع، ص: ٤٤٧-٤٤٩

أخذت الأشعار منحى تصعيدياً أكثر خطورة على يد الوليد بن عقبة، هو أخ الخليفة عثمان لأمه، وكان واليه على الكوفة. اتهم الوليد بني هاشم بتدبير مقتل أخيه، ليصلوا إلى الحكم، قال:

همو قتلوه كي يكونوا مكانـه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه
بني هاشم كيف التعاقد بيننا وعند علي سيفه وجرائبه
بني هاشمٍ لا تعجلونا فإنه سواء علينا قاتلوه وسالبه[1]

فأجابه الفضل ابن العبّاس، كما يذكر ابن عبد البرّ، قائلاً:

فلا تسألونا بالسلاح فإنه أُضيعَ، وألقاهُ لدى الروع صاحبُه
وشبّهته كسرى، وقد كان مثله شبيهاً بكسرى، هديُه وصرائبه
وإني لمجتابٌ إليكم بجحفل يصم السميعَ جرْسُه وجلائبُه[2]

والفضل هنا هو: الفضل بن العبّاس بن عتبة بن أبي لهب. في أرجوزته هذه يقدّم رؤية بني هاشم لطبيعة نظام عثمان بن عفّان: شبيهاً بكسرى في هديه. كان، إذن، حكماً على غير منهاج النبوّة، يرى بنو هاشم. ربما لهذا كان المتمرّدون يسرحون في المدينة بلا خوف، إذ هم يحملون على أطراف سيوفهم فتوى تبيح دم المتشبّه بكسرى. وأن الفتوى تلك لم يأتوا بها من الأمصار البعيدة بل من العاصمة نفسها، ومن بيوتها الكبيرة.

[1] الصفدي، **الوافي بالوفيات**، الجزء السابع، ص. ٤٥٩. وأيضاً عند ابن أبي الحديد في **شرح النهج**، الجزء الأول، ص: ٢٧٠.

[2] المكّي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، الجزء السادس، ص: 205.

الحقيقة أن الأرجوزات والقصائد التي اتهمت بني هاشم بالتواطؤ مع القتلة لم تجد من يردّها لا نثراً ولا قافية، لا من الطالبيين ولا سواهم. الفضل ابن العبّاس هنا في هذه الأرجوزة لم يبرئ عشيرته من تهمة التواطؤ بل ذهب ألمح إلى استحقاق الرجل للقتل، وأبدى استعداد عشيرته لخوض الحرب. تزايدت القصائد التي تلمح إلى بني هاشم، وتناقلها الناس كشهادة حية حول ما جرى. كما لو أنها قد وافقت انطباعاً عاما عن دور مفترض أو حقيقي لبني هاشم في الإطاحة بالنظام وقتل رأسه. وهو ما سيؤكده مجد الدين المؤيدي في كتابه لوامع الأنوار[1] حين يستدل بقصيدة طويلة للهادي بن إبراهيم يرد فيها على القائلين إن عليّاً أرسل أولاده لحماية بيت عثمان، مقرّراً إن عليّاً في تلك اللحظة "كان لسافكي دمه مآباً"، أي دم عثمان.

القرارات السياسية التي اتخذها عليّ فور توليه جاءت لتقول الشيء الكثير، فهو لم يتلكأ عن محاكمة قتلة عثمان وحسب، بل أطاح بأغلب ولاته في الأمصار، بدولته العميقة. لقد عمل على تصفية نظام سلفه قبل أن تجف دماؤه. كأنه كان يهيل تراب التهمة على رأسه ويؤكدها. صار المتمرّدون جيشه الضارب، جيشه الوحيد. استفاد علي من مقتل كل خصومه، وفي كل مرة كان يخرج رابحاً وأخلاقياً، يؤكد مملكته ويبشر قتلة أعدائه بالنار. تلك السيرة، بحذافيرها، سيستكملها أحفاده داخل المنظومة الأخلاقية العابرة للزمان، المسماة: علي كرم الله وجهه. لنعد إلى أولى قرارات علي بن طالب: تعيين بني هاشم ولاة على اليمن، الحجاز، والعراق. كما سيقيل

[1] انظر: **لوامع الأنور**، مجد الدين المؤيدي، الجزء الثاني، ص: ١٤٣

والي عثمان على مصر وينصب ربيبه وابن زوجته محمد بن أبي بكر، وهو الرجل الذي اختلف المؤرخون حول ما إذا كان فقط قد أمسك بلحية عثمان وجعل يشدّها أم أنه طعنه في عنقه بعد ذلك. كانت رؤية علي للدولة أنها مؤسسة هاشمية وكان ذلك مبلغه من فهم الإسلام، أو رؤيته النيبوتية Nepotism[1] للحكم: عائلية السلطة من أجل نظام مستقر ومستدام. تلك القرارات الخطرة، عائلية الدولة الجديدة، اتخذت دون مشاورة مع المتمردين بقيادة الأشتر، وكانوا في الأصل قد برروا ثورتهم بمحاولة عثمان تحويل الخلافة إلى منظومة حكم عائلية. كان الأشتر يرى إن إنجازه المتمثل في تصفية عثمان ونظامه يستوجب اقتسام السلطة مع علي، أي بين الفارس والمفكر، فلولاه لما وصل الأول إلى مبتغاه. يقول ابن أبي شيبة في مصنفه "جاء عتاب التغلبي – يقصد إلى الأشتر– والسيف يخطر، أو يضطرب، في عنقه فقال: هذا أمير مؤمنيكم قد استولى ابن عمه على البصرة، وزعم أنه سائر إلى الشام يوم كذا وكذا، قال: قال له الأشتر: أنت سمعته يا أعور؟ قال: أي والله يا أشتر لأنا سمعته بأذني هاتين، فتبسم تبسماً فيه كشور، فقال: **فلا ندري إذاً علام قتلنا الشيخ بالمدينة؟**[2]. أثار الأشتر اضطراباً في معسكر علي فاستدعاه، وراح يلاطفه قائلا "وإنما وليت ولد عمي العباس، لأني سمعت العباس يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله الامارة مراراً، فقال له **رسول الله** صلى الله عليه وآله :يا عم إن الامارة إن طلبتها وكلت

[1] نظام حكم يمنح امتيازات النفوذ والثروة للعائلة والأقربين.

[2] ابن أبي شيبة، **المصنف**، الجزء الثامن، ص. ٧٠٦

إليها، وإن طلبتك أعنت عليها. ورأيت بنيه في أيام **عمر وعثمان** يجدون في أنفسهم إذ ولى غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يول أحداً منهم، فأحببت أن أصل رحمهم، وأزيل ما كان في أنفسهم، وبعد فإن علمت أحداً من أبناء الطلقاء هو خير منهم فأتني به. فخرج الأشتر وقد زال ما في نفسه"[1]. كان علي، الجائع إلى السلطة، يدرك ورطته المتعاظمة. لقد تفرق عنه الناس، كما يقرر ابن تيمية في منهاج السنة. صار منقسما بين عائلته الظامئة إلى النفوذ والثروة وبين الثوار الذين يرون لهم حقا أصيلاً في بنية الدولة الجديدة. بين خوفه من حلفائه واستسلامه لطموحات أهله صار "رجل بلا رأي" بحسب وصف قيس بن سعد، عامله على مصر، كما يروي ابن الجوزي في المنتظم. في نهج البلاغة ستُختلق قصة عن عدالة الرجل: أحمى حديدة وأوجع بها شقيقه "عقيل" حين طلب منه نفوذاً وسلطاناً، معلما إياه درسا حول العدل والمساواة. ولا ندري لماذا تلقى عقيل لوحده الدرس بينما ذهب باقي أسرته ليحكموا البلدان من اليمن إلى العراق، باعتراف نهج البلاغة نفسه، وبتفصيل مطول من أبرز شارحي النهج، المعتزلي الأشهر ابن أبي الحديد، كما أسلفنا.

[1] ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الجزء الخامس، ص. ٩٩

امتحان صِفّين

تراسل الرجلان، معاوية وعلي، لثلاثة أشهر قبل معركة صفّين. ذكّره معاوية بالجد المشترك: عبد مناف. بالنسبة لعلي فإن الجد الواحد لا يعني الفضيلة نفسها، ولا النقاء نفسه. "نحن بنو هاشم في أيدينا فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز وأعززنا بها الذليل" يرد أبو الحسن على رسالة معاوية كما في شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة. سيكرر علي الحديث نفسه مع الخوارج حين احتجوا على التحكيم وحاججوه بالقرآن، قال لهم "بنا هداكم الله".

وقف عليٌّ في العراق وحيداً، إلى جواره قطاع الطرق وبدو شمال الحجاز والجماعة التي ستصير الخوارج، وراح يقدمه نفسه كعلم الهدى. صارت الكوفة مركزاً لتزييف الرواية التاريخية، من الحديث إلى التاريخ. نقرأ في كتب التراجم عن الوضّاعين، على سبيل المثال: أصبغ بن نباتة، سليم بن قيس، محمد الكلبي، حبّة العرني، أبو مخنف. جميعهم يوصفون بأنهم من أصحاب علي. على أن أشهر الوضّاعين كانوا من أهل الكوفة، توارثوا الخيانة العلمية كابراً عن كابر[1]. وكلهم، بلا استثناء، ينطلقون من فكرة الحق: أي حصر الحكم في آل البيت. في "كتاب العثمانية" ساق الجاحظ هذا الجدل:

[1] انظر: أثر التشيّع على الروايات التاريخية، عبدالعزيز ولي، ١٤١٥ هـ. الفصل الأول: الرواة الغالون في التشيّع ٣٨– ٦٦، الأخباريون الغالون في التشيّع ٦٨–١٢٩.

"إن كان الأمر كما ذكرتم كيف لم يقف يوم الجمل ويوم صفين أو يوم النهر في موقف يكون من عدوه بمرأى ومسمع، ولذكّر الناس بفضيلته التي سمعوها عن رسول الله، ولكان ذلك أشد وقعاً عليهم من مائة ألف سنان"[1].

يحاجج مشايعوه، من السنة والشيعة، بالإحالة إلى قائمة مناقبه، وهي قائمة من الأوصاف لا علاقة لها بالأفعال، معزولة كلياً عن سياقها التاريخي، يمكننا القول إنها نصوص مهملة بالنسبة لدارس التاريخ.

وقعت المعركة، واشتبك الجيشان. ولما مالت الشمس إلى الغروب نظر معاوية إلى أرض المعركة وهاله ما رآه. حدث الشيء نفسه على الضفة الأخرى، وكان الرجال يدفنون الخمسمائة جثة في قبر واحد، كما يروي البلاذري في أنساب الأشراف. اجتمع معاوية بمستشاريه، وكان عمرو بن العاص أقربهم. كان يبلغ من العمر، آنذاك، ٨٧ عاماً. أبدى معاوية تخوفه من سير المعركة على ذلك النحو، فمن شأن تلك الحرب المميتة أن تغري الروم بالهجوم على الشام، والفرس بالانقضاض على العراق. كان من الممكن أن تضع صفين نهاية لما أنجزه الآباء المؤسسون الثلاثة: أبوبكر، عمر، عثمان. على الضفة الأخرى يلتقي علي بمستشاريه ويسارررهم بمخاوفه: إن استمرت الحرب على هذا النحو فقد يهلك بنو هاشم. أو قال: آل رسول الله. علي، كعادته، يفكّر بأمر أسرته. لافت للانتباه إيمان علي بنفسه وذريته، إيمان ذو طبيعة بيولوجية، كل معارك

[1] الجاحظ، **كتاب العثمانية**، ص: ١٠- ١١

الرجل وتيهه ناشئ عن ذلك الإيمان: نحن خير الناس. رأى الناس، وهو غلام صغير، يتحلقون حول النبي فتخيل الأمر على طريقته. يحدثنا ابن عبدربه في العقد الفريد بخبر مثير:

دخل الأشعث بن قيس الكندي على علي وبين يديه صبيّة. يسأله عنها فيرد علي: هذه زينب بنت أمير المؤمنين. يقول الأشعث: زوجنيها، فينهره علي: أغرّك ابن أبي قحافة حين زوجك أم فروة؟ إنها لم تكن من الفواطم ولا العواتك من سُليم. قال الأشعث: زوجتم أخمل مني حسباً وأوضع مني نسباً، المقداد بن عمرو، وإن شئتم المقداد الأسود. قال علي: ذلك رسول الله فعله[1].

وللمقداد بن عمرو قصة أخرى مع علي تدور في السياق نفسه، سياق السلالة التي لا بد أن تبقى نقية من وجهة نظر علي. يقرر النبي تزويج الشاب اليماني الدخيل على قريش، والذي سيلقب بالمقداد بن الأسود نسبة إلى كفيله القرشي. يرسل النبي عليّاً ليخبر ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، ابنة عم النبي، بالخبر. يعود علي إلى النبي بالخبر: إن ضباعة كرهت الأمر. يرسل النبي رجلاً آخر، وما إن يسألها حتى تقول: لقد أبلغت عليّا بردي، قلتُ له الأمر ما يراه رسول الله[2]. يمرر الرسول قراره ويزوج ابنة عمّه إلى رجل فرّ من حضرموت بجنحة. أخفى عليّ الحقيقة على النبي، فلم يكن ليحتمل أن تتزوج امرأة هاشمية من حضرمي لا يعرف عنه سوى دينه. وهل ذلك بأمر ذي بال؟ سيخفي الكثير أيضاً. في موضع آخر يتذكر عليّ معركة بدر

[1] ابن عبدربه، العقد الفريد، الجزء الثاني، ص: ٤٤٢

[2] الجاحظ، **كتاب العثمانية**، ص. ١٨١

يقول: لم يكن فينا فارس سوى المقداد بن عمرو. وحين يتذكر غيره تلك المعركة يقولون: والزبير بن العوام. كان الزبير خصمه، وسيسقط قتيلاً على أيدي رجاله، وحين يسرد علي التاريخ يحاول حرمان الزبير من ذلك الشرف، شرف أن يكون أول من أشهر سيفاً دفاعاً عن النبي، وأول من ركب فرساً في حروب الإسلام.

صاحب عليّ الرسول في حياته ولم يتعلم منه فضيلة التواضع. كان تعاليه على الناس، على المهن، وعلى رفاقه سبباً وجيهاً لنأي الناس عنه. لحظة اختيار عثمان بن عفان خليفة لعُمر تكشف جانباً من موقف الصحابة تجاه الشاب الذي سيعيش حتى آخر عمره معتقداً أن الله اختار بني هاشم لنقاء عرقي فيهم. يعيش معهم، وحين يختلفون عنه أو معه يفاجئهم بما لا يعرفونه. ففي صحيح مسلم أنه قال "والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمّي إليّ، أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق"[1]. احتكر لوحده هذه الأفضلية، والمنافق ليست نعتاً بقدر ما هي حكماً بالنار "خالداً مخلداً فيها". في منهاج السنة يرد ابن تيمية على من قال إن الفقهاء كانوا يلجأون إلى علي. يقول ابن تيمية: إن هذا كذباً بيناً. أهل المدينة لا يكادون يأخذون بقول علي، بل أخذوا فقههم عن الفقهاء السبعة، عن زيد وعمر وابن عمر ونحوهم[2]. في موطن آخر في منهاج السنة يقرر ابن تيمية أن كثيرين من أهل المدينة لم يكونوا يحبّونه. وهو

[1] النسائي، السنن الكبرى، كتاب المناقب. رقم: ٦٩٢٦

[2] ابن تيمية، منهاج السنة النبوية ، الجزء السابع، ص. ٥٢٩-٥٣٠

ما سيردده المجلسي في بحار الأنوار محيلاً الأمر إلى رغبة أهل المدينة في حرمان آل بيت النبي من حقّهم.

التاريخ يقول شيئاً آخر، فالرجل الذي يحمل اسم "علي" كان متعالياً، ولم يكن يفعل شيئاً، وقد انفرد دوناً عن كل أصحاب النبي بأحاديث تمجده شخصياً. الأمر الذي جعل كل المحدثين يأخذونها عن لسانه ويفردون لها باباً أسموه مناقب علي. الحديث، في النهاية، تاريخ. ومادام الرجل المعروف بقربه من النبي هو من يروي فلتوضع روايته في الكتب كما هي. والآن نتساءل: تلك كانت المدائح، فأين الأفعال التي تؤكدها؟ يذهب الجاحظ بعيداً جداً في مواجهته لأكذوبة المناقب، يخترق طفولة علي ويصوّرها على نحو بديع[1]. يخلص الكاتب الأشهر إلى القول: لقي القوم من الجهد والخوف والذل والتطراد والضرب ولم نسمع لعلي في ذلك ذكراً. للجاحظ استخلاصه المهيب في تلك المسألة: عاش عليّ في قريش لا طالباً ولا مطلوباً.

لنعد إلى صفّين، إلى ذلك الاختبار المهيب لقدرة علي على الرئاسة والحرب:

المملكتان، العراق والشام، أمام اختبار جهد حاسم. الحرب أخذت مستويات معقدة ومركبة: هي حرب الحجاز واليمن، هي حرب علي ومعاوية، هي صراع ثأري داخل مُضر، هي معركة العراق والشام، وهي ظلال لحروب روما وفارس. كل ذلك مجتمعاً. قبل الحرب كان خطباء الشام

[1] انظر: الجاحظ، كتاب العثمانية

يحرضون أهلها على العراقيين، وكان العراقيون يمنون أنفسهم بخراج الشام وزرعه. وعندما شرع الحكمان في كتابة وثيقة الصلح وكتبا "هذا ما عاهد عليه أهل العراق أهلَ الشام" انتفض أهل الشام ضد أن يكتب اسم العراق قبل اسم بلادهم. أمر لا بد أن نضعه في الحسبان: الشام، كما هي في جغرافية ذلك الزمن، كانت تمتد من غرب العراق إلى سيناء. ما يعني أن معاوية كان حاكماً على الجزء الأكثر كثافة وحيوية داخل الإمبراطورية الإسلامية، وهو ما يفسر الانضباط المثير للإعجاب الذي بدا عليه جيشه.

وافق معاوية على فكرة التحكيم، ورفضها علي بادئ الأمر، أراد أن يمارس حقه كقائد، وكانت المفاجأة أن دخل في صدام مباشر مع الحفّاظ، ثم مع باقي جيشه. تقدر مصادر تاريخية عديدة الحفاظ بثلاثة آلاف فرد في جيش علي. أمام هذه المعضلة قبل عليٌّ بالتحكيم، مضافاً إليه مخاوفه الخاصة على مصير آل النبي من حرب ضارية. سيضيف ابن أبي الحديد في شرحه للنهج سبباً آخر وجيهاً. قال علي لأصحابه معللاً: إنما فعلت ما فعلت لما بدا فيكم من الخوف والفشل عن الحرب. أعلن القائد، إذن، فشل حربه، وانهيار معسكره، وبدأ يتلاسن مع رجاله كما يجري عقب كل حرب فاشلة.

غير أن موافقته على التحكيم مثّلت صدمة مباشرة للمتمردين، لقتلة عُثمان. قال الأشتر لجماعته "إن يصطلحوا وعليّ فعلى دمائنا، فلنتوائب على علي فنلحقه بعثمان فتعود فتنة يرضى

منا فيها بالسكون"[1]. كان موضوع قتلة عثمان هو أول ما سيبحثه الرجلان، وهو ما دفع الأشتر ورفاق لإثارة الفوضى داخل معسكر علي. بعد صدام علي مع الحفّاظ اصطدم بالمتمردين الذين رفضوا إيقاف الحرب. سيتسع التمرّد داخل جيشه حتى يعم الجيش جميعه، كما سنبيّن أدناه.

من المثير أن جُلّ ما كتب عن معركة صفّين وعن التحكيم خرج من العراق، وأن مساهمة الشام في رصد ذلك الحدث تكاد تكون منعدمة. اختار علي طريق السلام مجبراً وسمّى ابن عمّه عبدالله بن عبّاس ممثلاً لدولته في العملية الحوارية التي ستجري في رمضان. آنذاك كان شهرُ صفر من سنة ٣٧ هـ. اختياره لابن عمّه دفعه لصدام مع اليمنيين القليلين الموالين له. بلغ الشك بين كل الأطراف أعاليه، وأجبره اليمنيون والحفّاظ على البحث عن رجل نزيه لا تربطه به علاقة ولا يدور في شبكة مصالحه، وسمّوا له أبا موسى الأشعري. كان الأشعري فقيهاً، وكان قائداً عسكرياً فيما سبق، وكان قد اعتزل معارك علي مع من اعتزلها. جعل عليّ على وفده ابن عبّاس وشريح بن هانئ وآخرين، الجميع تحت إمرة القائد الأشعري الذي جاؤوا به من مكان بعيد. يتوسل ابن هانئ لأبي موسى الأشعري أن يقف إلى جوار علي في هذه المسألة العويصة "التحكيم" ويذكّره قائلاً: قد كانت منك تثبيطة أيام الكوفة والجمل[2]. أن يمثّل عليّاً رجلٌ ليس من جيشه، رافضاً لكل حروبه، لهو موقف يفصح بالكثير عن الشخصية القيادية لعلي بن أبي طالب. على الضفة

[1] الطبري، تاريخ الطبري، الجزء الثالث. ص. ٥٠٧

[2] ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الجزء الثالث، ص: ٢١٧

الأخرى يلقي معاوية بأخطر الرجال العرب، بعمرو بن العاص. ولابن العاص ذلك عقلٌ وحكمة لخصهما النبي، قائلاً "أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص"[1].

يشير الجاحظ إلى ورطة علي في تلك الأرض، قال إن عشرين ألفاً من صحابة رسول الله كانوا في تلك الأثناء يعيشون حياتهم في المدينة غير آبهين بمعاركه. كان وحيداً شديد الوحدة، وبدا له إن إيمانه باصطفاء الله لسلالته دفعه إلى طريق شديد الوعورة، وانتهى به قتيلاً في مضيعة من الأرض، كما توقع ابنه الحسن. ينقل الجاحظ على لسان عامر الشعبي "لقد وقعت الفتنة وفي المدينة عشرون ألفاً من أصحاب رسول الله، ما خفّ فيها منهم عشرون، ومن زعم أنه شهد الجمل ممن شهد بدراً أكثر من أربعة فقد كذب. كان عليّ وعمار في شقّ، وطلحة والزبير في شقّ"[2].

فكرة السلام التي ألقاها معاوية على الطرف آخر عملت على زعزعة جيش علي، وها هي مجموعة رابعة من المعترضين قدرتها مصادر عديدة ب ١٢ ألف مقاتل ترفض التحكيم جملة وتفصيلاً، مرددة "إن الحكم إلا الله". تصاعد الجدل بين هذه الجماعة، التي ستسمى المحكّمة، وعلي، وستكون أول من ينشق عن جيشه. تفكك جيش علي إلى شطائر وفرق، وتلاسن الناس وكاد يقتل بعضهم بعضاً. شيء واحد اتفقوا عليه: افتقار القائد للياقة والقدرة على اتخاذ القرار.

---

[1] الألباني، **صحيح الجامع الصغير**. ص: ٢٢٧

[2] الجاحظ، **كتاب العثمانية**. ص: ١٠-١١

ستذهب سهير القلماوي في بحث رصين أشرف عليه طه حسين إلى القول إن عليّا سيكون أول حاكم عربي خلعه شعبه[1]. من المثير معرفة أن شعب علي آنذاك كان جيشه، بخلاف الشام: الأمة والجيش والأرض. يتخذ ابن عبده ربه في العقد الفريد زاوية مثيرة للنظر: لم ينتفض على علي من أصحابه إلا أهل الجد والنجدة، وأصحاب البرانس والبصيرة. يضعنا "العقد الفريد" أمام حقيقة تاريخية مدوية: أصحاب الجد والبصيرة، أي جماعة الحكمة والرأي والفضيلة، ينتفضون على الحاكم. تخبرنا كتب التاريخ أن الرجل فشل سابقاً في إقناع أهل الجد والبصيرة من أهل المدينة ومكة بالانضمام إليه، ومن اكتسبهم من باقي الأمصار تخلوا عنه في اليوم الثاني للحرب.

آل جيشه إلى هرج ومرج، وتنحّي الخوارج جانباً ونزلوا بمكان غير بعيد عن الكوفة. دارت مفاوضات كثيرة بين الطرفين، علي والخوارج، وتصاعد النزاع بينهما فحكم الخوارج عليه بالكفر. تسري تلك الفتوى كالنار في الهشيم، خصوصاً وهي صادرة عن فئة يصفها صاحب العقد الفريد ب"أصحاب الجدّ والبصيرة". فيرد عليها عليّ بحشد معروف من القصص التي ستظهر لأول مرة عن الخوارج، وهي مرويّات حطّتهم فجأة من درجة المجاهدين إلى قوم من أهل النار. تستهدف القصة الأهم أحد أبرز فقهائهم: حرقوص بن زهير التميمي. تقول القصة إن النبي وصفه قائلاً "يخرج من ضئضئ هذا –أي من أصله ومعدنه– رجال تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، يمرقون من

[1] انظر: **أدب الخوارج**، سهير القلماوي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥م.

الدين كما يمرق السهم من الرمية". يُقتل التميمي في معركة النهروان ويتعرف علي على جثته، أو على ثديه الذي يشبه ثدي المرأة. لندع التاريخ يفاجئنا كعادته: كان حرقوص التميمي من رجال علي، سافر من البصرة إلى المدينة واشترك في قتل عثمان، ثم صاحب علياً إلى الجمل، وحارب إلى جواره في صفّين، وحين رأى أن الرجل قد خان العقيدة، من وجهة نظره، تخلى عنه ثم قاتله. رحلة استمرت زهاء ثلاثة أعوام، كان فيها الرجلان رفيقي سلاح، نسي فيها عليّ حديث "يخرج من ضئضئ هذا"[1] ولم يتذكره إلا قبل معركة النهروان بساعات.

قال رسول علي للخوارج، في أجواء المعركة: سلّموا قتلة عبد الله بن خباب بن الأرت. فرد عليه الخوارج: كلّنا قتلة. هذه الصراحة الصادمة التي تعامل بها الخوارج مع علي جعلت مفكّرا كبيراً مثل ابن تيمية يصل إلى استنتاجه الشهير: لا يقدر على الروافض سوى الخوارج. يمكننا فهم ما يريد ابن تيمية قوله: لأنهم يقولون الحقيقة كما هي، ضاربين عرض الحائط بقائمة المناقب التي يحملها علي في جيبه في السراء والضراء. تدحرجت كرة الثلج، أو كرة النار، وتمكّن علي من إحراز نصر حاسم في معركة النهروان. ولكن الحروب التي تبدأ على ذلك النحو، حول عقيدة ونظرية، لا تُحسم في معركة واحدة. فبعد ثلاثة أعوام من تلك اللحظة تمكّن أحد رجال الخوارج، ممن هزموا في النهروان، من اغتيال علي بن أبي طالب وهو خارج لأداء صلاة الفجر.

[1] متفق عليه.

الرئاسة خدعة

من عَجَبٍ أن الرجل الذي عاش في المدينة ساكتاً لربع قرن، منذ موت النبي حتى مقتل عثمان، صار فجأة ظامئاً للدماء فيخوض ثلاثة حروب أهلية جاوز ضحاياها المائة ألف قتيل، وربما أكثر منهم من الجرحى. وقعت الحروب الثلاثة في سنوات حكمه الثلاث الأولى، وكان بمقدوره في كل مرة تلافي الذهاب إلى الحرب. يعرف دارسو سيرته، السنة والشيعة على السواء، أنه كان يفتقر إلى الخبرة الدبلوماسية، ويغمغون قائلين إن ذلك يعود إلى امتلاك الرجل للحقيقة المُطلقة التي لا تقبل المناورات. أمام المشاكل السياسية المعقدة كان يقول إنه لن يعطي الدنيّة في دينه. كان يخلط بين هو سياسة وما هو دين، ويضع الدين كلّه إلى جانبه. يمكننا إحالة الأمر إلى استملاك فكرة "الحق الإلهي" لذهنه، وسيطرتها على خياله، وفوق ذلك إلى عزلة طويلة في المدينة خارج الحقل السياسي، وحتى الفقهي كما يذهب ابن تيمية في المنهاج[1]. حتى ابن عبّاس، رفيقه في بعض حروبه، لم يكن يأخذه على محمل الجد حين يتعلّق الأمر بالفقه والعلوم، وفقاً لابن تيمية[2]. كان عليّ يرى أن قدره أن يأمر فيُطاع، كما كانت الأمور تجري مع النبي. ونتيجة لذلك صار

---

[1] ابن تيمية، **منهاج السنة**، الجزء السابع، ص: ٥٣٠. يقول ابن تيمية: ليس في الأئمة الأربعة – ولا غيرهم من أئمة الفقهاء– من يرجع إليه في فقهه. وأمّا مالك فإن علمه عن أهل المدينة، وأهل المدينة لا يكادون يأخذون بقول علي بل اخذوا فقههم عن الفقهاء السبعة عن زيد وعمر وابن عمر ونحوهم [...] **وابن عباس كان مجتهداً مستقلاً** ، وكان إذا أفتى بقول الصحابة أفتى بقول أبي بكر وعمر لا بقول علي، وكان ينكر على عليّ أشياء.

[2] المرجع السابق.

الرجل مخذولاً أينما ذهب، إذ رأى الناس أن حروبه كانت للرئاسة لا للديانة، كما يذهب ابن تيمية. وهو رأي دفع الكثيرين لاتهام ابن تيمية بالنفاق[1]. لم يتقبل علي حقيقة أنه رجل من المسلمين، وأن صلة القرابة بينه وبين النبي لا تمنحه أفضلية على سائر الناس. استوعب العرب الإسلام بوصفه سلطة عامة، أفقية، ليس فيها دماء طاهرة وأخرى دنسة، ذلك ما منح الإسلام جزءً من حيويته وجاذبيته. نهر النبي، يوماً ما، أبا ذر لأنه عاب رجلاً بأمّه السوداء، وجاء أبناء عليّ وأحفاده يعيبون الناس بأمهاتهم[2]. وكان الحسن يسب معاوية عن بُعد، يقول "أمي فاطمة وأمك هند، وجدّتي خديجة وجدتك فتيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً، وألأمنا حسباً"[3].

خبر ولاية علي لم يكن بالأمر الهيّن على كثيرين من أصحاب النبي، على وجه الخصوص أولئك الذين اشتغلوا بالسياسة والحرب وعرفوه عن قُرب. فهم يعرفون تسرّعه وغضبه، وأكثر من ذلك يدركون إيمانه المُطلق بحق أهل بيته في الحُكم. فهذا عبد الله بن سعد بن أبي السرح، حاكم مصر والجنرال الذي قاد معركة ذات الصواري البحرية، يقول لمن أبلغه بوصول الخلافة إلى علي بن أبي طالب إنها مصيبة تعدل مصيبة مقتل عثمان، كما يورد ابن الأثير في الكامل في التاريخ. ويفرّ عُبيد الله بن عمر بن الخطاب إلى الشام ما إن منح علي نفسه لقب "أمير المؤمنين"،

---

[1] ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أخبار المائة الثامنة**، الجزء الأول، ص: ١٥٤-١٥٥.

[2] عند الطبري في **تاريخ الرسل والملوك**، الجزء الخامس، ص: ٤٢٤، أن الحسين صاح بأحد خصومه قائلاً يا ابن راعية المعزى أنت أولى بها صليّاً. وهو في **بحار الأنوار** للمجلسي، الجزء ٤٥، ص: ٥.

[3] ابن أبي الفتح، **كشف الغمة**، الجزء الثاني، ص: ١٦٤-١٦٥

ولذلك سبب. فقبل ١٢ عاماً سدد أبو لؤلؤة طعنات إلى الخليفة عُمر وهو يصلي الفجر، ومات في اليوم نفسه. سرت شائعة، قيل إن مصدرها عبد الرحمن بن أبي بكر، تتحدث عن مؤامرة خطط لها الهرمزان، وكان فارسياً أسلم وأقام في المدينة. حمل عبيد الله سيفه وقتل الهرمزان انتقاماً لأبيه، ثم قتل زوجة أبي لؤلؤة ورجلاً آخر. كانت حادثة عويصة وجد لها الخليفة الجديد مخرجاً بأن جعل من نفسه ولي دم القتلى، ودفع الدية. كان لعليّ رأي آخر: أن يُقاد عبيدالله عمر بن الخطاب، أي يُقتل. الرأي الذي نشر موجة استياء وتوجس في مدينة دفنت للتو أباه الخليفة، وقال الناس "الله الله، أمس عُمر واليوم ابنه". تجاوز عثمان الامتحان الأخلاقي العسر من خلال تكييف فقهي للقضية التي صارت شأناً سياسياً، وقال له عمرو بن العاص: حدث ذلك وليس لك على الناس سلطان. أما علي فقال لعُبيد الله "والله لأن ظفرت بك يوماً لأقتلنك بالهُرمزان". وبقي يحرّض على قتله، وحين وصل إلى السلطة طلبه بدم الهرمزان ففرّ إلى الشام[1].

لندع ابن الأثير يكمل الحكاية في أسد الغابة: "لما ولي عليّ الخلافة أراد قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب فهرب منه إلى معاوية، وشهد معه صفّين، وقتُل في بعض أيامها[2]". من اللافت للنظر أن عليّاً الذي اضطربت مملكته منذ اليوم الأول وجد وقتاً للتفكير في دم الهرمزان، الذي

[1] ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في معرفة الصحابة**، الجزء الثالث، ص: ٢٣٤، وصفحة ٣٥٠. كذلك في **تاريخ الإسلام** للذهبي، الجزء الأول، ص: ٤٧٢. كذلك عند ابن الأثير في **أسد الغابة**، الجزء الثاني، ص: ٢٢٨.

[2] ابن الأثير،**أسد الغابة**، الجزء الثاني، ص: ٢٢٨.

قتل في حقبة سابقة، ولم تتسع عدالته للقصاص لدم الخليفة عثمان. حين تعلّق الأمر بتلك المسألة، عثمان، قال عليّ للوفود التي طالبته بحسم مسألة قتلة الخليفة قبل أيّ شيء "كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم"، كما يروي ابن الجوزي في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم[1]. المتمردون الذين حسموا المعركة مع الخليفة لصالحهم استطاعوا أن يبسطوا سلطانهم على المدينة، ودوناً عن كل الناس وقع اختيارهم على عليّ ليكون الحاكم الجديد. عليّ الذي قبل هذا الاختيار، ضارباً برأي باقي الأمصار عرض الحائط، وصف ما جرى أمام معاتبيه من أهل المدينة قائلاً "إن هَذَا الأمر أمر **جاهلية**، وإن لهؤلاء القوم مادة، وذلكَ أن الشَّيْطَان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بِهَا أبدا"[2]. هي شريعة الشيطان، إذن، كما يصفها عليّ وكما يراها. بيدَ أنه قبل تلك الشريعة، وخلق من "أمر **الجاهلية**" نظامه السياسي والعسكري.

بعد مقتل عُمر بحوالي عقدين من الزمن سيُقتل عليّ، وسيذهب أبناؤه لينتقموا لمقتل أبيهم. في حالة عُمر قام واحد فقط من أبنائه وارتكب عملية قتل في حق ثلاثة أشخاص مرتبطين بالقاتل، كان اسمه عبيد الله بن عمر بن الخطاب. أما في حالة عليّ فإن الأبناء يتسابقون على جسد الرجل المصفّد، عبد الرحمن بن مُلجم، وهذا ما يفعلونه: قطعوا يده ثم رجله، وحلوا عينيه بمسمار

[1] وهي كذلك عند الطبري في **تاريخ الرسل والملوك**، الجزء الرابع، ص: ٤٣٧. وفي **الفتنة ووقعة الجمل** لسيف الضبي، ص: ٢٣. وعند آخرين.

[2] الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، الجزء الرابع، ص: ٤٣٧

محمى، قطعوا لسانه، ثم أحرقوه في النار[1]. شارك في تلك العملية ثلاثة رجال: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب. ما فعله الثلاثة، انتقاماً لدم أبيهم، يفوق ببشاعته ووحشيته ما اقترفه عبيد الله بن عُمر. وكان عليّ قد أوصى بقتل عبيدالله من قبل، وطلبه للإعدام فور توليه الخلافة. لا بد من إشارة هُنا إلى الحسن بن علي، الاستثناء الذي يؤكد القاعدة: نهاهم الحسن عن ذلك الفعل القبيح ولم ينتهوا، كما ينفرد عبد الرزاق الصنعاني.

المؤكد في التاريخ السياسي لعلي أنه كان يبادر إلى الحرب وإسالة الدم مع كل خصومه، كان يذهب إليهم مزوّداً بحشود من المتمرّدين الذين حاصروا المدينة واغتالوا سلفه. سنواصل تتبع تلك الرحلة وإعادة النظر في جوانبها العديدة حتى يتسنى لنا تخيّل المآل الأليم الذي انتهت إليه في العام ٤٠ للهجرة، بمقتل الرجل بسيف ابن ملجم. وكان ابن ملجم جندياً مخلصاً في جيش علي، أبلى بلاء حسناً في الجمل وصفّين.

الطبيعة المتعالية لعليّ الحاكم، وما تمتح منه من إيمان غائر بالنقاء العرقي والاصطفاء السماوي، جعلت البلدان تهوي من بين يديه. فبعد أن رفضت بلدة مصرية يقال لها خريتا مبايعة علي

[1] ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، الجزء الثالث، ص: ٣٩. كذلك في **الأخبار الطوال** للدينوري، ص: ٢١٥. وفي **تاريخ مدينة دمشق** لابن عساكر، الجزء ٤٢، ص:٥٦٠. **وعند آخرين**: ابن الأثير في **الكامل في التاريخ**، ابن أبي الحديد في **شرح النهج**، أبي الفداء في **التاريخ**، الديار بكري في **تاريخ الخميس**، ابن عمرو الشيباني في **تاريخ الآحاد والمثاني**، وفي **مصنّف عبد الرزاق** الصنعاني.

أرسل والي مصر قيس بن سعد بن عبادة خطاباً يطلب في من عليّ التماس العذر لأهل البلدة. سرعان ما جاءه رد غاضب من علي يأمره فيه باقتحام البلدة وإعمال السيف فيها. احتار قيس أمام تلك السياسة فكتب إلى عليّ قائلاً "إني قد عجبتُ من سرعتك إلى محاربة من أمرتني بمحاربته من عدوك، ومتى ما فعلت ذلك لم آمن أن يتساعد أعداؤك ويترافدوا ويجتعموا من كل مكان فيغلظ الأمر وتشتد الشوكة"[1] . دفع قيس ثمن تلك النصيحة، وسلّم علي حكم مصر إلى رجل من خاصته اسمه محمد بن أبي بكر، نزولاً عند رغبة عبدالله جعفر بن أبي طالب، وكان أخاً لمحمد من الأم. تلاعب الصبيان بعقل علي وتدخلوا في تعيين الولاة وعزلهم، وكذلك فعل المتمرّدون. ولنرَ ماذا جرى لمصر عقب هذا القرار. يروي المجلسي في بحار الأنوار، والطبري في تاريخه[2] أن محمداً بن أبي بكر ما إن استلم الحكم حتى هدد بطرد أهل البلدة وتشريدهم، قال "إما أن تدخلوا في طاعتنا وإما أن تخرجوا من بلادنا"، فردوا عليه "لا نفعل، دعنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس فلا تعجل علينا". هاجم محمدٌ أهل خربتا، وفيها يزيد بن الحارث مع أهل كنانة، ولكنها قاومت وقتلت قائدين على الأقل من رجال علي بن أبي طالب.

توسّعت المعركة، ولبشاعة ما حل بالقرية ثار الناس في مصر واضطرب الأمر على حاكمها. حدث ما حذر منه قيس، ودعا معاوية بن حديج، وكان يمنياً مُهاباً هناك، إلى الثورة ضد والي

---

[1] البلاذري، **أنساب الأشراف**، ص: ٣٩٢

[2] الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الثالث، ص: ٥٥٧. كذلك: المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٣٣، ص: ٥٥١. وفي **الغارات** للثقفي، الجزء الأوّل، ص: ٢٥٤. وعند آخرين.

عليّ على البلاد. لم يكُن معاوية بن أبي سفيان بعيداً عمّا يجري في مصر. كان ابن أبي سفيان قد أخذ سمة الإمبراطور وهو لا يزال والياً عادياً لعمر بن الخطاب، إذ يذكر الطبري في تاريخه وابن عبد البر في الاستيعاب أن عُمراً قال لوفد الشام "تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية"[1]. أدرك محمد بن أبي بكر أن مصيراً مشؤوماً ينتظره فكاتب عليّاً يطلب منه النجدة، ولكن عليّاً كان أحوج منه إلى من ينجده، فقد علق في بلاد غريبة وأحاط نفسه بالأعداء من كل جانب. وبينما هو يفكّر في كيف يمنع سقوط مصر في قبضة خصمه دخل عليه المقربون منه من أهل الكوفة وفتحوا معه حديثهم المُعاد عن أبي بكر وعمر، فيتململ عليّ معاتباً "هذه مصر يُقتل بها شيعتي وعندكم وقتٌ لهذا الحديث"[2]. عجز حاكم الكوفة، الذي لا يزال يحمل لقب أمير للمؤمنين وإن كان على بعض البلاد، عن اجتراح حلّ عاجل ينقذ درّة الإمبراطورية فارتكب خطأ خطيراً لا يقل سوءً عن إقالة قيس بن سعد عن مصر وتنصيب غلام سيء السمعة مكانه. ما إن فتح محمد بن أبي بكر رسالة علي حتى وجد بها هذه النصيحة: "انتدب كنانة بن بشير السكوني"، أي لقتال المحتجين. وكنانة ذاك هو الرجل الذي يقول أهل مصر، وسائر الأمصار، أنه ضرب الخليفة عثمان بعمود على رأسه. ظنّ علي أنه قادر على إخضاع

[1] الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الخامس، ص: ٣٣٠. وابن عبد البر في **الاستيعاب**، الجزء الثالث، ص: ٤٧١.

[2] بن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، تحقيق الشيري، الجزء الأول، ص: ١٧٤

كل الناس من خلال إطلاق المتمرّدين وقتلة عثمان عليهم، كما فعل في العراق وأماكن أخرى. ما كان للسكوني أن يغير من خط سير المواجهة في مصر.

وبعيداً عن مصر جلس علي مأزوماً حائراً، ودعا ربّه "الحمدلله الذي ابتلاني بمن لا يطيعني إذا أمرت، ولا يجيبني إذا دعوت"[1]. عملياً يعترف عليّ هُنا أن قومه قد خلعوه، فهو هُنا كما في خطب وتأملات أخرى يتحدث عن عصيان مدني شامل ضرب مركز إمارت، العراق، وجعله غير قادر على إدارة أيّ من معاركه. في الكوفة أشاع الناس "لقد تاب أمير المؤمنين"، إذ رأوا خيول الخوارج تدخل المدينة بعد صلح سياسي مؤقت، كما يروي البلاذري في أنساب الأشراف. كان ذلك بعد صفّين وقبل أن تتدهور الأمور بين الطرفين إلى حرب النهروان الشهيرة. تحركت الرمال من تحت أقدام "أمير المؤمنين"، وتحققت نبوءة قيس بن سعد: إن فعلت ذلك لم آمن أن يتساعد أعداؤك ويترافدوا ويجتمعوا من كل مكان. ساءت الأحوال فاتخذ عليّ قراره الأخير بشأن مصر: أرسل مالك الأشتر. قبل أن يتوغل الأخير في أراضيها يفقد حياته، ويحاط بموته غموض دامس. بعد موت الأشتر يرسل عليّ خطاباً إلى محمد بن أبي بكر يرجع فيه عن قرار إقالته ويثبته في مكانه حاكماً على مصر، ولكن الثورة كانت قد دخلت طريق اللاعودة، ونجح الثوار في قتل الحاكم والتنكيل بجثته. انضمت مصر إلى إمبراطورية الشام الآخذة في التصاعد، وانكمش علي في "مضيعة من الأرض" كما حذره ابنه الحسن. يحدثنا ابن أبي حديد، المعتزلي الأشهر، كيف

[1] البلاذري، **أنساب الأشراف**، ص: ٤٠٢. وهو كذلك عند الطبري في **تاريخه**، وعند الثقفي في **الغارات**.

أن الحسن راجع أفكار أبيه بخصوص معركة الجمل فغضب الأب ورماه ببيضة حديد "عقرت ساقه" فعولج منها شهرين[1]. كان يملك الحقيقة المطلقة، يظن، وفي سبيلها يقول ويفعل ما يشاء. فلم يكن ليتردد لحظة وهو يقول إنه سمع رسول الله يقول عن الخوارج "طوبى لمن قتلهم وقتلوه". لم يُعرف حديث واحد، في كل السنة، يمجّد فيه النبي القتل، ويحرّض عليه، عدا الحديث الذي رواه علي عن خصومه الخوارج .

وبينما هو يحاول أن يستطلع أخبار الشام قبل صفين عاد إليه رسوله جرير البجلي بتقرير مفصّل عمّا يعتمل هناك من رفض وغضب بسبب مقتل عُثمان، ويلمح إلى أن الحرب الآن لن تكون قراراً صائباً، فيهب مالك الأشتر، وكان حاضراً اللقاء، لينهر الرجل ويهينه ويطالب بإبعاده وحبسه. وجرير ذاك روى عنه البخاري عشرة أحاديث، وقال عن نفسه "ما حجبني النبي منذ أسلمتُ". لم يكن الأشتر بالذي يقيم وزناً لنخبة ذلك الجيل، لا لزوجات النبي ولا دائرة أصحابه. يصدّقه علي، ويندفع خلفه، ليغرق في الفتن أكثر من ذي قبل. كان عليّ وهو يرى الفتن تتخلق على جانبيه يخطب في الناس "**ثم إن الله يفرج الفتن برجل منّا آل البيت**[2]" معتقداً أن كونه من آل البيت ضمانة لجعل الفتن تتلاشى من تلقاء نفسها. لم يحدث شيء من ذلك، وذهب الرجل من آل البيت إلى مصيره. لنلق نظرة على طريقة الأشتر في حل المسائل الشائكة:

---

[1] ابن أبي الحديد، **شرح النهج**، الجزء السابع، ص: ٤٦. كذلك عند: الثقفي في **الغارات**، ص: ٨٥

[2] المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٣٣، ص: ٣٦٨. كذلك عند ابن أبي شيبة في **المصنّف**، الجزء ١٤، ص: ٢٢٥

حين وصل جيش علي إلى الرقّة ووجد نهر الفرات أمامه توقّف في مسيره. ولما رآه أهل البلدة قاموا بضمّ سفنهم إليهم كي لا يعبر عليها جيشه إلى الشام. فقام الأشتر وخطب متوعداً "أقسم بالله لئن لم تعملوا جيشاً يعبر عليه أمير المؤمنين لأجردّن فيكم السيف ولأقتلن الرجال ولآخذ الأموال"[1]. أصيب القوم بالرعب وقالوا "إنه الأشتر، وإنه قمن بأن يفي لكم بما حلف عليه ويأتي بأكثر منه" وأقاموا له جسرا. كان الأشتر كلب أمير المؤمنين المفترس، لا يعرف الرحمة، وهو هنا يهدد بلدة آمنة بذبح رجالها وسلب أموالها إن لم تعمل في خدمة جيش أمير المؤمنين. نحواً من ذلك، كما بيّنا سابقاً، تعامل محمد بن أبي بكر مع بلدة مصرية تحفّظت في تأييد علي. ظنّ عليّ أنه قادر على فرض سلطانه بسيوف المتمرّدين والمراهقين وقطاع الطرق، فالمؤرخون ينقلون أن كل ذلك كان يحدث في معيته وتحت سمعه وبصره. من الملائم هُنا، قبل أن نترك سيرة محمد بن أبي بكر، إن نذكر واحدة من أطرف المراسلات في التاريخ الإسلامي، جرت بينه وبين معاوية. تسلّم معاوية رسالة من محمد يأمره فيها بالخضوع لعلي، سارداً فضائل مولاه. غير أن معاوية بعد أن فرغ من قراءة خطاب ابن أبي بكر أجابه بالتالي:

" .. فدَعا أبوك وعُمر عليّاً إلى أنفسهما فبايع لهما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرهما حتى مضيا وانقضى أمرهما. ثم قام عثمان ثالثاً يسير بسيرتهما ويهتدي بهديهما فعبته أنت

[1] ابن مزاحم المنقري،, **وقعة صفّين**، الجزء الأول، ص: ١٥١. كذلك عند ابن الأثير في **الكامل في التاريخ**، الجزء الثالث، ص: ٢٨١.

وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي وظهرتما له بالسوء. **ولولا ما سبقنا إليه أبوك وأنه لم يره موضعاً للأمر** ما خالفنا علي بن أبي طالب ولسلمنا إليه. ولكنا رأينا أباك فعل أمراً اتبعناه واقتفونا أثره. فإن كان ما نحن فيه صوابا فأبوك أوله، وإن كان خطأ فأبوك أسسه ونحن شركاؤه، اقتدينا وبفعله احتذينا، فعبْ أباك ما بدا لك، أو دع"[1].

لم يكن ذلك الموقف انطباعاً يخص معاوية، بل موقفاً يشاركه سواه من مجايليه. يشير معاوية هُنا إلى أمر مثير: تجاهل الخليفتين أبي بكر وعُمر لعلي بن أبي طالب، واستبعادهما له من كل شؤون الدولة. وكان ابن تيمية، كما أوضحنا في السابق، قد قال إن الفقهاء أيضاً تجاهلوه، بمن فيهم ابن عبّاس الذي كان لديه مآخذ على فقه الرجل[2]. وما كان لمعاوية أن يردد مثل هذا الأمر في رسالة رسمية لو أن التاريخ يقول خلافها .

كان عمرو بن العاص قد اعتزل السياسة في عهد عثمان ونزح مع بعض أهله إلى فلسطين، وقد بلغ الثمانينات من عمره. وحين بلغه خبر إمرة علي جمع أبناءه وشاورهم قائلاً إن الخلافة قد ذهبت إلى من ليس جديراً بها. اتخذ قراراً بالعودة إلى السياسة مسكوناً بهاجس أن تنهار دولة المسلمين، وبعد أن قال له أحد أبنائه "أنت ناب من أنياب العرب، ولا أرى أن يجتمع هذا

---

[1] البلاذري، **أنساب الأشراف**، ص: ٣٩٦ . وعند الطبرسي في **الاحتجاج**، الجزء الأول، ص: ٢٧٢. وفي **شرح النهج** لابن أبي الحديد، الجزء الأول، ص: ٦٣٢.

[2] ابن تيمية، **منهاج السنة**، الجزء السابع، ص: ٥٣٠.

الأمر وليس لك فيه صوت"[1]، ونصحه بأن يفعل شيئاً كي لا تنفلت الأمور، فترك فلسطين وذهب إلى العاصمة الجديدة .

تشبّع عليّ بوهم أن لكل فتنة حلاً اسمه رجل من آل البيت، ورأى لنفسه الحق في أن يعمد إلى كل الوسائل في قتاله من أجل الرئاسة، بتعبير ابن تيمية. فعل أولاده بابن ملجم كل الأفعال التي نهى عنها النبي، غير أن كون الرجال من بني هاشم لهو مما يبطل القوانين كلها. تلاعب بالمتمردين وتلاعبوا به، بهم حصل على الرئاسة وبه حصلوا على النفوذ، ثم انهار كل ذلك البناء خلال أربعة أعوام وحسب. كان المغيرة بن شعبة قد نصحه بالإبقاء على عُمّال عثمان ولو لبعض الوقت حتى تستتب له الأمور، فأجابه عليّ، كما يروي الواقدي وغيره: والله لا وليت هؤلاء أبداً، ولا مثلهم يولى[2]. اتسع حزام المواجهة بين عليّ وكل الجيل الذي عاش في زمنه، وليس مستغرباً أن يذهب إلى معاركه تاركاً خلفه عشرين ألف صحابي في المدينة غير آبهين بحروبه.

لم يكن عليّ حريصاً على التحرّر من دم الخليفة، بل ذهب يطرد كل عُمّاله من الأمصار ليحيط نفسه بمزيد من الريبة والشكوك ويوسع من دائرة الرفض والضغينة. وقد تسامعت العرب بقصيدة

---

[1] الكامل في التاريخ، الجزء الثالث، ص: ١٤١. كذلك في **الإصابة** للعسقلاني، الجزء الثالث، ص: ٣٨١. وفي **نهاية الأرب** للنويري، الجزء ٢٠، ص: ٢٤٠.

[2] كذلك عند ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، الجزء الخامس، ص: ٧١. كذلك في **مرآة الزمان** لسبط الجوزي، الجزء الرابع، ص: ١٧٥.

حسان بن ثابت التي قال فيها "ما كان شأن عليّ وابن عفّانا"، كما يروي كبار المؤرخين. يتذكر ابن عبّاس أنه نصحه بالذهاب إلى مكّة والاعتكاف هناك، وأن ينتظر، فإن كان للعرب حاجة إليه فسوف تأتيه. النصيحة نفسها ذكّره بها ابنه الحسن وهما في طريقهما إلى الكوفة لمساندة المتمرّدين ضد عائشة. الثلاثة، ابن عباس والحسن والمغيرة، لم يجدوا من عليّ الأذن التي وجدها الأشتر وابن أبي بكر وطائشٌ ثالث اسمه عبدالله بن جعفر.

من الملائم أن نختم هذه الفصل بحوار مشهور دار بين علي وابن عبّاس من جهة، ثم بين عليّ والمغيرة بن شعبة، كما أوردته طائفة واسعة من المؤرخين. يبدو عليّ شديد الحزم أمام ولاة عثمان، بمن فيهم معاوية، ملوّحاً بالسيف تجاههم جميعاً. وكان بالأمس قد طلب من أهل المدينة أن يتفهموا ضعفه أمام قتلة عثمان لما لهم من شوكة ومادة. كان بمقدوره أن ينجز إجماعاً شعبياً إن أراد مواجهة المتمرّدين الذين قدرتهم المصادر التاريخية بألفي رجل، وكانت ستكون معركة أيسر عليه من مواجهة "أم المؤمنين" جنوب العراق ومعها عشرات الآلاف. يعاتبه، أو لنقل يحذره، ابن عبّاس من عواقب قلّة خبرته في الحرب والسياسة، ويدافع هو عن نفسه بحماس لا ينتمي إلى أيّ من ذلك. يقول له ابن عبّاس بدبلوماسية رفيعة" أنت رجل شجاع ولستَ بأربٍ في الحرب". الشجاعة، يصارحه ابن عبّاس، ليست هي الحرب. بيدَ أن الرجل يطلب من ابن عبّاس في نهاية الحوار ما يتوقعه من كل العالم: الطاعة. ويقرّر، فيما بعد، أن يذهب إلى خصومه

بالسيف، معتقداً أن المتمردين الذين قتلوا عثمان يملكون القدرة الكافية لإزالة كل ما يقف في طريق الرجل من آل البيت.

حدث الحوار على هامش قرارات عليّ بتصفية عمّال عثمان، وعزل معاوية وآخرين:

قال ابن عباس:

إنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق، مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك.

فقال علي:

أما ما ذكرت من إقرارهم، فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا لإصلاحها. وأما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولي منهم أحداً أبداً، فإن أقبلوا فذلك خير لهم، وإن أدبروا بذلت لهم السيف. وتمثَّل:

وما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها.

قال ابن عباس:

فأطعني، وادخل دارك، والحق بمالك بينبع، وأغلق بابك عليك، فإن العرب تحول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، فإنك ـ والله ـ لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك دم عثمان غداً.

فأبى علي، فقال لابن عباس: سر إلى الشام فقد وليتكها.

فقال ابن عباس:

ما هذا برأي، معاوية رجل من بني أمية، وهو ابن عم عثمان، وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عنقي لعثمان، أو أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيتحكم علي.

فقال له علي: ولم؟

قال ابن عبّاس:

لقرابة ما بيني وبينك، وإن كل ما حمل عليك حمل علي، ولكن اكتب إلى معاوية فمنّه وعِده.

فأبى علي وقال: والله لا كان هذا أبداً.

ويجري حوار آخر، كما عند الطبري وغيره، مع المغيرة ابن شعبة:

يقول المغيرة لعلي:

إني أشير عليك برد عمال عثمان عامك هذا، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم، فإذا بايعوا لك، واطمأن الأمر لك، عزلت من أحببت، وأقررت من أحببت.

فقال علي:

والله لا أداهِن في ديني ولا أعطي الدني في أمري.

قال المغيرة:

فإن كنت قد أبيت علي فانزع من شئت واترك معاوية، فإن لمعاوية جرأة، وهو في أهل الشأم يسمع منه، ولك حجة في إثباته، كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام كلها.

فقال علي:

لا والله، لا أستعمل معاوية يومين أبداً.

تركه المغيرة ثم عاد إليه بنصيحة أخرى، **قال له:**

إني أشرت عليك بما أشرت به، فأبيت علي، ثم نظرتُ في الأمر فإذا أنت مصيب، لا ينبغي لك أن تأخذ أمرك بخدعة، ولا يكون في أمرك دلسة.

عاد ابن عبّاس لنصيحة عليّ مرّة أخرى، قال له:

يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع **لست بأرب بالحرب**، أما سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: الحرب خدعة؟

فقال علي: بلى.

فقال ابن عباس:

أما والله، لئن أطعتني لأصدرن بهم بعد ورد، ولأتركنهم ينظرون في دبر الأمور، لا يعرفون ما كان وجهها، في غير نقصان عليك، ولا إثم لك.

فقال علي:

يا ابن عباس، لست من هنيَّاتك وهنيَّات معاوية في شيء، تشير عليّ وأرى، فإذا عصيتك فأطعني[1].

قبل أن يغادر عليّ الحياة الدّنيا كان قد خسر مصر، وكان ذلك نتيجة لمتتالية من الأخطاء والخطايا، غذتها الغطرسة الفقيرة إلى الخيال. أدّت خسارته لمصر إلى خسارته لليمن والحجاز. وحين انتقلت السلطة إلى ابنه – وهو ما لم يحدث مع أيّ من الخلفاء السابقين– وجد الحسن نفسه في المَضْيَعة التي تاه فيها والده، تلقّت يمنة ويسرة وأدرك ورطته. وما إن سمع هدير جيش الشام يقترب حتى أعلن استسلامه وتخلى عن الجيوب الأخيرة التي أورثها إياها الأب عليّ بن أبي طالب.

---

[1] **تاريخ الأمم والملوك**، الجزء الرابع، ص: ٤٣٩–٤٤٠، وص: ٤٦٠–٤٦١. **مروج الذهب**، الجزء الثاني، ص: ٣٦٤. **الكامل في التاريخ**، الجزء الثاني، ص: ٣٠٦، والجزء الثالث، ص ٣٠٦، والجزء الثالث ص: ١٩٧–١٩٨. **البداية والنهاية**، الجزء السابع، ص: ٢٢٩. **الفصول المهمة لابن الصباغ** الجزء الأول، ص٣٥٨ ، و٣٦١ .**سير أعلام النبلاء**، الجزء الثالث، ص: ١٣٩. **تاريخ الإسلام للذهبي**، الجزء الثالث، ص٥٣٨. **في تجارب الأمم**، لابن مسكوية، الجزء الأول، ص: ٤٦٣.

أخطر ليلة في حياة العرب

كل خبر عن علي هو خبر عن خرافة. ملأ الرجل تاريخنا ضجيجاً، ولكن سيرته الحقيقية تكاد تكون فارغة. ثمة ريبة وغموض يحيطان بسيرته برغم كل الضجيج. الرجل الذي تزوّج ابنة النبي يفقد زوجته الشابه وهي في التاسعة والعشرين من عمرها، يدفنها في الظلام ومعه رجل أو رجلان، ويخفي ملامح قبرها. هكذا تختفي ابنة الرسول فجأة، ما من أثر، أو نص عن مرض أو إصابة أدت إلى وفاتها في تلك السن المبكّرة. ثمة روايات متناثرة في كتب السير عن هزال أدركها حزنا على أبيها، أن نفسها نُعيتَ إليها، وأن الملائكة تراءت لها في نومها حاملة نعشاً. سيقول عليّ إنها أوصت بأن تدفن بالليل كي لا يصلي عليها الرجلان[1]، أو أولئك الذين ظلموها وأخذوا حقها، كما سيروي الفتّال النيسابوري في روضة الواعظين[2] . شيئاً واحداً لا يعرفه كتاب السير: أين دفنت فاطمة، ولماذا سرّاً وفي ظلام الليل؟

يحدثنا ابن سعد عن الأمر، قال إن ابن عبّاس سئل متى دفنتم فاطمة؟ فقال بليلٍ بعد هدأة. ومن صلّى عليها؟ أجاب ابن عبّاس: علي[3]. دفنت ابنة الرسول في مكان ما إلى جانب الطريق،

---

[1] الشيخ الصدوق، **علل الشرائع**، الجزء الأول، ص: ١٨٥

[2] الفتّال النيسابوري، **روضة الواعظين**، ص: ١٥١

[3] ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، الجزء الثامن، ص: ٣٠.

بين قبرها والطريق سبعة أذرع[1]، وصلّى عليها زوجها وحيداً وهو يعرف الوزن التاريخي الذي تملكه ابنته داخل ذلك المجتمع.

يقول الحُسين، كما في الكافي للكليني، إن والده بعد أن دفنها سرّاً عفا على موضع قبرها، أي أخفى ملامحه. ويروي النيساربوري في الروضة أن أهل المدينة حين افتقدوها ذهبوا إلى علي ليسألوه عنها فقال "لحقت بالمصطفى" فملؤوا عليه غيظاً وحقداً[2]. أخذ الجدل حول قبر فاطمة، الليلة التي ماتت فيها، والطريقة التي غادرت بها الدنيا مساحة واسعة في التاريخ. اتخذ الكوفيّون من تلك القصّة منطلقاً لتغطية نظام عليّ بن أبي طالب أخلاقيّاً، فهو الرجل الذي لفرط ما حل به من الظلم اضطر وحيداً للصلاة على زوجته المتوفاة. كيف يمكن أن تغادر فاطمة الدنيا سرّاً، وهي ابنة المؤسس الأول للدولة، النبي الذي لم يمض على موته سوى نصف عام، وفي المدينة أحبّ الرجال إليه؟ هذا الأمر ليس هو ما نود بحثه هنا، نشير فقط إلى ما قلناه سابقاً أن كل ما أحاط بسيرة علي مريب حقّاً. وبرغم كل الإشراق الذي يُصب على سيرته إلا أنها، إذا ما أخضعناها للدرس العلمي، تبدو إما فراغاً أو ظلاماً. وليس أدل على ذلك من حقيقة أن ربع

[1] المرجع السابق. وفي **الإصابة لابن حجر**: وقال الواقدي: قلت لعبد الرحمن بن أبي الموالي: إن الناس يقولون: إن قبر فاطمة بالبقيع، فقال: ما دفنت إلا في زاوية في دار عقيل، وبين قبرها وبين الطريق سبعة أذرع.

[2] الفتّال النيسابوري، **روضة الواعظين**، ص: ١٥٠.

قرن من حياته في المدينة – بين وفاة النبي وحرب الجمل –يكاد يختفي كلياً داخل الحقبة الكوفية، حقبة الأعوام الأربعة.

كل حديث في فضائل علي يبدو، على نحو مريب، محاولة لإلغاء حديث آخر يمدح خصومه، أو رفاقه. فعندما يقول حديث "اغلقوا كل أبواب المسجد إلا باب علي" سيلاحظ الباحث أن هذا النص، وهو مما ضعفه جمهور أهل الحديث، جاء رداً على ما يوازيه عند البخاري "سدّوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر". وستكون بطولاته على الشاكلة نفسها: فتحَ حصن خيبر بعد أن عجز عنه عُمر، تزوجَ فاطمة بعد أن رفض الرسول خطبة عمر لها، قتل بن عبد ود بعد أن خافه عُمر الذي راح يطالب بسرقة درعه. حتى حديث النبي عن الأنصار وقوله "لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق"، كما في صحيح الإمام مسلم، سيصبح حديثاً عن علي: لا يحبّه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. كل نص في فضائل عليّ هو خطاب سياسي إلا فيما ندر، وكل بطولة تروى عنه هي بطولة يُراد لها أن تدعم حديث الغدير. داخل سيرته لا وجود لسواه، وعند فحص تلك السيرة جيداً يكون علي أول من يختفي منها. يُراد لسيرته العملاقة أن تقول أن النبي غادر الدنيا ولم ينجح سوى في استقطاب عليّ إلى جانبه، ومن عداه كانوا فشلة أو خائنين.

اتّسعت تلك السيرة البديلة حتى فاق حجمها ما كتبه المؤرخون المعتبرون، وتجاوز حجم "سُنّة علي" السنن كلها. فبعد حذف المكرر سينزل صحيح البخاري إلى أقل من أربعة آلاف، بينما

يبلغ حجم ما قيل في عليّ ثلاثة وخمسين مجلّداً عند العاملي. أما التراث الشيعي، في الحديث والتاريخ، فليس أكثر من حكاية عن عليّ. في ذلك التراث يتلاشى حتى القرآن نفسه، يدفعه عليّ إلى الهامش. لكل صحابي، من المجموعة الضيقة التي أحاطت بالنبي، قائمة مناقب يذكرها أصحاب السير، كما المحدثون. إلا قائمة علي فإنها مختلفة كلّياً. تتعلق مناقب علي، أغلبها، بالوعيد والتهديد لأولئك الذين سيبغضونه أو يكرهونه. ولماذا سيكره الناس رجلاً أحاط بالنبي، لماذا هو بالتحديد؟ تتفوق الأحاديث التي تتوعد خصوم علي بالويل والثبور، من حيث النوع والدرجة، على تلك التي تتوعد كارهي النبي ورسالته. سيرة علي من النوع الخاص: جدار ناري، قلعة حصينة. ليست حكاية عن رجل ذهَبَ، بل حراسة صلبة ومدرعة لرجل سيأتي. هذا ما تقوله سيرة علي: سيولد في كل وقت، سيأتي دائماً، سيكون له أعداء، وسيذهبون جميعاً إلى النار إن لم يكونوا طوع بنانه. فهو، كما يقول شريعتي، الإمام الذي تنتظره كل أمّة في كل وقت[1]. إن عليّاً، الحقيقي والوهمي، لا يموت، يولد باستمرار، ويعرف طريقه: إلى السلطة. تلك مهمته دائماً، لا يعرف سواها .

عانت إمارة علي في الكوفة من تناقضات وصراعات داخلية، كما بات عليها منذ اليوم الأول أن تواجه أزمة المشروعية. فضلا عن تورط الرجل في حرب انتحارية مع خصوم يفوقونه قدرا داخل الدين، كالسيدة عائشة، وآخرين يفوقونه دراية بشؤون الدولة كمنظومة الحكم في الشام،

[1] للمزيد انظر: علي شريعتي، **علي في محنه الثلاث**. ترجمة: علي الحسيني، إبراهيم دسوقي. دار الأمير، بيروت، الطبعة الأولى.

وأزمته الداخلية مع متمرّدين يفوقونه بأساً. من وراء كل تلك البيئة العدوانية ثمة بلاد مترامية الأطراف آمنت بالنبي بحسبانه مبلغاً عن الله يدعو إلى الحق والخير، لا ملكا يورث البشرية لبنيه. كان معاوية يقضم إمارته عليّ شيئاً فشيئاً ويقترب من معقله، إذ أخضع اليمن والحجاز ومصر. عجز علي عن بناء جيش ضارب فاستخدم القوة الناعمة: صنّاع الأحاديث والسير. كانت تلك مدافعه، وستضرب بجنون أكبر في المستقبل حين تصير مدافع بنيه وأحفاده. ومن المثير أننا نجد في التاريخين، الزائف والجيّد، عليّاً وهو يستنفر الناس مفتتحاً كلامه بالقول "والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله يقول" ثم يروي عن فضيلة نفسه.

أمام ظروف الكوفة القاسية لجأ علي لآخر حيله، رفع نفسه إلى الأعلى، لعله يحقق انتصاراً أخلاقيا (لنقل سماوياً) على خصومه. الموجة الأولى من تأليه الرجل حدثت في حياته من قبل شيعته، لحقتها الموجة الثانية بعد موته وتلك انضم إليها كثيرون من سيلقبون أنفسهم بأهل السنة. دوافع الأخيرين تعاطفهم وحزنهم الشديد للمآلات الأليمة التي انتهت إليها مغامرات الطالبيين، وعزاء متأخر يقدمونه لبني هاشم الذين استحقوا موتا أفضل. هكذا ستخرج الخرافات تباعاً. سيصير الرجل الذي أدت حروبه إلى مقتل ما يربو على المائة ألف مسلم خلال عامين إلى غلام متناهي الجسارة نام على فراش رسول الله، بما لتلك اللحظة من نبالة وعلو شأن في الوجدان المسلم. سينام حتى الفجر، وحين يكبر في السن يصبح هو الرجلَ الذي حلّ محل النبي وحلّ فيه النبي. سيذهب مشايعوه بتلك الليلة بعيداً جداً حد نزول جبريل وميكائيل لينامان إلى جواره،

وستصبح مدخلا لولايته العابرة للزمان. يوصي محدثو السنّة بالإيمان بتلك القصّة، حتى وإن لم تكن ترقى إلى مستوى القصّة الصحيحة.

الطريق إلى الغار

اتخذ العرب لأنفسهم تاريخاً مثل سائر الأمم، وكانت ليلة الهجرة فاتحة التاريخ العربي. هكذا تستقل الإمبراطوريات بنفسها، يصبح لها تاريخها الخاص، وشخصيتها المكتوبة. الأهمية التاريخية الفارقة لتلك الرحلة تضع كل شخوصها وأفعالهم في مركز التاريخ. هكذا عرفنا اسم راعي الغنم عامر بن فهيرة، نطاق أسماء بنت أبي بكر سيصير إلى بطل في التاريخ، وسمعنا لأول مرة باسم صعلوك يقال له سراقة. واجه علي، وهو ينظر إلى الماضي، مشكلة صعبة مع ذلك الحدث. فالقرآن يشير إلى أبي بكر حين يتحدث عن الرحلة تلك، كما في سورة التوبة، وما مكان لعلي. علي التائه في الكوفة في مسيس الحاجة إلى مزيد من الدعم في مواجهة الخصومة، ومن أجل استنهاض أهل الكوفة المعروفين بالتمرّد والغدر، كما يصفهم البغدادي في عمله الفرق بين الفرق. سبق أن قلنا إن كل قصة كبيرة تُحكى عن علي هي حكاية يُراد لها أن تنسف فضيلة لأحد رفاقه. ستجد كتب السير مكاناً لعلي في تلك الليلة الأكثر إثارة في تاريخ الدولة العربية، وسيكون هذا المكان على حساب أبي بكر، كما نتوقع.

في مسند أحمد، عن طريق أبي بلج، نجد علياً نائماً على فراش النبي، الوقت صباحاً، المشركون أمام الباب، ويقتحم أبو بكر المنزل فيرى رجلاً غير النبي. يسأله عن رسول الله فيجيبه علي "قد

انطلق نحو بئر ميمون فأدركه". حشدٌ من المحدثين وأصحاب السير يذكرون هذا الخبر: أحمد، الطبراني، النسائي، الحاكم، ابن عساكر، والطحاوي .

كثيرون من ناقلي الخبر، وجلّهم من القرن الثالث الهجري، يصلون إلى المصدر نفسه: أبو بلج الكوفي. يمضي أبو بكر في طريقه إلى بئر ميمون، وبدلاً عن أن يتعقبه القرشيون لمعرفة مكان النبي ذهبوا يعلنون عن جائزة لمن سيدلهم على المكان. الحديث هُنا يحاول تصفية الشرف الذي حصل عليه أبو بكر في سورة التوبة، فهو هُنا دخيل على الرحلة، لا يعلم عنها شيئاً، وسيلتحق بالنبي دون طلب منه، تطوّعاً وفضولاً. بهذا الشكل اتّسع مكان علي داخل تلك الحكاية، صار بطلاً رغماً عن سورة التوبة. ولكن من هو أبو بلج الكوفي هذا الذي احتكر قصة المنام الشهيرة؟ يقول عنه ابن حبّان في "كتاب المجروحين من المحدثين": في متن حديثه ألفاظ منكرة، بل باطلة لمنافرتها ما في الصحيح. ثم يقول "لا يُحتج فيما انفرد به". وهذا الحديث مما انفرد به. كان الجوزجاني الأكثر صرامة في تقييمه للرجل: غير ثقة.

كان البخاري مجايلاً لابن حنبل، عاشا معاً في القرن الثالث الهجري، وسمعا الحديث معاً. لماذا تجاهل البخاري خبر منام علي في فراش النبي؟ ذلك أن "أبو بلج الكوفي" فيه نظر، بحسب كلمات البخاري. يقول مقبل الوادعي، المحدث الشهير: وهي من أردأ عبارات التجريح عند البخاري. موقف البخاري هو موقف شيخه ابن معين الذي ضعّف أبا بلج، كما عند ابن عبد البر. سيتجاهله مُسلم أيضاً، وستخسر تلك الحكاية الشرف الذي تطمح إليه: تجاهلها

الشيخان. أي لم يريا فيها من معقولية أو مصداقية تجعلها قابلة لأن تُروى. ليست قصة تتعلق بحدث عاد، بل بتفصيلة خطرة في أهم ليلة في حياة العرب، ورغم ذلك فإن الشيخين أهملاها كلّياً. عُرف عن أبي بلج الكوفي أنه روى أحاديث منكرة في فضل علي مثل حديث اغلقوا كل أبواب المسجد سوى باب علي، وسواها. هنا مسألة لا بد من الإشارة إليها، ولنتحاشى الدخول في علم معقد كعلم الحديث: قال أحمد عن أبي بلج الكوفي إنه روى حديثاً منكراً. أحمد نفسه نقل الحديث في المسند، وعنه نقل كتاب السير. يبرّر أحمد موقفه العام في مسألة الرواية:

"إذا روينا عن رسول الله في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشدَّدنا في الأسانيد، وإذا روينا في فضائل الأعمال، وما لا يضع حكمًا أو يرفعه تساهلنا في الأسانيد"[1].

ذلك الخبر، خبر المبيت، سيستفز محدثا محترماً كالترمذي وسيرفضه جملة وتفصيلا، وسيأتي الذهبي لينكر الخبر، وسيتردد ابن تيمية، سيرفض ثلثي الحديث الطويل وسيقبل خبر المبيت، ولكنه سيراه خبراً لا يمنح صاحبه أي امتياز أخلاقي، إذ أن الرسول كان قد أكّد لعلي أنه لن يصيبه أذى. لنذهب إلى البخاري، أشد المحدثين فحصاً للأخبار. في كتاب الهجرة للبخاري نجد الرجل قد أحاط بأخبارها وتتبعها في ٢٤ حديثاً، وما من إشارة واحدة إلى نوم علي في فراش النبي. يحذو الإمام مسلم حذو البخاري ويهملان تلك القصة كلياً كما أسلفنا. وإذا هبطنا في علم الحديث

[1] الخطيب البغدادي، **الكفاية في علم الرواية**، ص: ١٦٣.

درجة، من الشيخين إلى أصحاب السنن (الأربعة: ابن ماجة، الترمذي، النسائي، أبو داوود) لا نجد للقصة أثراً سوى في رواية باهتة عند النسائي تتناقض كلياً مع تفاصيل ليلة الهجرة لدى الشيخين. فعند البخاري أن النبي وصاحبه خرجا معاً من منزل أبي بكر. وفي رواية النسائي، التي تفسح مجالاً لعلي، تقول إن أبا بكر لم يكن له علم بالمكان الذي ذهب إليه النبي. إن رواية النسائي، إذن، تنسف دور آل أبي بكر بالكامل. لنهبط درجة، وفقا لجودة المعايير العلمية المتبعة آنذاك، ولنبحث عن خبر المنام في كتب السير والمغازي، ومحدثي الدرجة الثالثة كابن حنبل والبيهقي والحاكم. هناك نجد القصة، قصة نوم علي في فراش النبي، وسيوردها أحمد في مسنده كما قلنا سابقاً. لنتذكر أن مسند الإمام أحمد يبلغ أربعة أضعاف حجم صحيح البخاري.

أخذت ليلة الهجرة التي رواها البخاري هذا الشكل:

يذهب النبي نهاراً، متقنّعاً، إلى بيت أبي بكر، يشكل أبو بكر فريق عمل، تُعد الراحلتان، أسماء وعائشة تعدان سفرة في جراب، وعبد الله بن أبي بكر، وكان غلاما ثقفاً لقناً، يُرسل للتجسس. يغادر النبي وصاحبه مساء إلى غار ثور ويمكثان ثلاث ليال، قريباً منهما يمشي عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، بأغنامه جيئة وذهاباً.

لا مكان لعلي في هذه القصّة ولا حاجة له، فالفريق الذي شكله أبو بكر من أبنائه وخدمه قد قام بالمهمّة. يتضح أيضاً أن النبي كان قد ترك منزله نهاراً، ولم يعُد إليه. هذا السيناريو، كما يذكره البخاري، ينسف قصة مبيت علي من جذورها، فهي قصة تبني حواراً ليليّاً بين النبي وعلي، بينما

القرشيون كامنون بالقرب من المنزل، يلبس علي ثياب النبي، ينام في مكانه، فيخرج النبي والقوم في مكانهم قد أغشي على عيونهم. وما إن تطلع الشمس حتى يأتي أبو بكر – الذي لا يعرف شيئاً – ليسأل عن النبي فيجد السرّ كله في معيّة علي .الحمَام، العنكبوت، ومبيت علي، خرافات ثلاث ألحقت بالقصة لمزيد من الإثارة. غير أن أدوار علي تتجاوز الإثارة دائماً، وتؤسس لإيديولوجيا عابرة للزمان. تبدو قصة الهجرة مكتملة دون الحاجة لعلي، وكعادته حين يدخل الحكاية فلا بد أن يخرج منها آخر، وهنا يغادر أبو بكر، وسيصبح شخصاً هامشياً، أما أسرته التي شكلت فريق الهجرة فستفقد مكانها بالكامل. ذلك أن الذهاب إلى بيت أبي بكر سيجعلنا نرى فتاة صغيرة السن تجهز المؤنة للمهاجرين، وليست مصادفة أن اسمها سيكون عائشة، وأن شقيقتها اسمها أسماء وهي التي ستصبح زوجة الرجل الذي سيقتله عليّ يوم الجمل. لا يمكن قبول الرجلين داخل القصة نفسها: علي، وأبي بكر. كما لا يمكن دمج القصتين في حكاية واحدة، يتعذر الأمر عملياً. إمّا أن النبيّ كان في منزل أبي بكر، وخرجا معاً، كما هي قصّة البخاري. أو أنه كان في منزله، وهناك حلّ عليّ مكانه وغادر هو إلى مكان لا يعرفه أبو بكر، وتلك هي قصّة المنام الشهيرة. إذا تناقضت رواية البخاري مع رواية محدث آخر، يقول أهل الحديث، تؤخذ رواية الأول وتترك رواية الآخر. وهنا، استناداً إلى تلك القاعدة، تسقط حكاية المنام.

ليست مصادفة، أيضاً، أن يكون الخبر برمّته كوفيّاً، خرج إلى النور في الأرض التي أسماها الإمام مالك "أرض الضرب"، هناك حيث يدخل الحديث شبراً ويخرج ذراعاً، كما يقول الزهري. إن خبرا مدويّاً كهذا ما كان له أن يصبح قصة يتداولها محدثو الدرجة الثالثة مع كتاب المغازي والسير في القرن الثالث الهجري لو لم يكن حكاية كوفيّة. لطالما تذكر أهل المدينة حياتهم مع النبي ساعة بساعة وما أتوا بالمرّة على سيرة ذلك الفراش وذلك الفتى النائم.

إن فضائل علي لا تستقيم بذاتها ما لم تطرح أرضاً رفاقه وتجردهم من فروسيتهم وفضائلهم وشرفهم. وبرغم أن حادثة نومه في فراش النبي تبدو خبراً محايداً، إلا أن الأمر ليس كذلك، فهي قصة مركّبة يُراد لها أن تجرد أبا بكر وعائشة من شرف الحضور في تلك الساعة الهامة، وتخرجهما عن السياق، من جهة. وأن تكون المانيفيستو النبوي الأعظم: يا علي، أنت خليفتي وظلي الليلة، وفي كل الليالي. لا شيء بريء في سيرة علي، ذلك أنها سيرة مخترعة بعناية، وهي أقرب إلى أن تكون آلة اغتيال، أو بروباغاندا، منها إلى اعتبارها مجرد خبر أو أثر. فكل خبر عن عليّ، أيّاً كان لونه، هو خطاب سياسي في النهاية.

البكاء أمام الغارات

بعد موت النبي لزم عليٌّ وبنوه المدينة لربع قرن، اعتزلوا السياسة والحرب، ولم يساهموا في أيّ من العمليات العسكرية التي أعلنها أبو بكر من أجل تثبيت دعامات الدولة الوليدة في الجزيرة العربية، الدولة العربية الأولى. بعد انتهاء تلك العمليات، التي ستسمى حروب الردة، جاءت الفتوحات ذات الطبيعة الإمبراطورية. مرّة أخرى قرّر علي النأي بنفسه عن تلك الحروب، وعن السياسة إجمالاً، رافضاً طلب عُمر بن الخطاب منه أن يقود المعركة ضد الفرس في القادسية. ثم فجأة، بعد مقتل الخليفة الثالث، أراد أن يحكم كل تلك البلاد التي لم يعرفها لا جندياً ولا فقيهاً ولا زائراً .

في الثامن عشر من ذي الحجة، ٣٥ للهجرة، هجم المتمرّدون على دار الخليفة عثمان وقتلوه شرّ قتله. سال دم المؤسس الثالث للدولة العربية الأولى، وكان يبلغ من العمر آنذاك ٨٢ عاماً. خرج المتمرّدون من دار الحاكم وتجولوا في المدينة فارضين سلطانهم المؤقت على كل ما يدبّ فيها. داخل تلك الأجواء من الخوف والهلع بايع بعض أهل المدينة عليّاً مؤملين أن يساعد ذلك الاختيار على الخروج من الأزمة كون الرجل مقرّباً من المتمرّدين. آخرون لزموا ديارهم، وسواهم قدموا البيعة تحت سلطان سيوف المتمرّدين. ذهب المتمرّدون بأنفسهم لأخذ البيعة لعلي، ثم صاروا رجاله وقادة جيشه وحكّام أمصاره. لم يمض سوى وقت قصير حتى اصطحب عليّ المتمردين، انتظمهم في جيش كبير، وخاض بهم أولى معاركه. خاض المعركة الأولى ضد زوجة النبي، أم سائر المؤمنين في الوعي الإسلامي. معركة الجمل تلك كانت أول عملية عسكرية يشارك

فيها، ويقودها علي بن أبي طالب منذ ربع قرن. وحين سيقتل سنة ٤٠ للهجرة فسوف يغدو من العرب القلائل الذين عاشوا في ذلك الزمان ولم يواجهوا الروم والفرس في أي موقعة. حتى تبوك،التي هبّ العرب إليها قاصدين الروم، تغيّب عنها عليّ. هناك دائماً أسباب يسردها مريدوه ليعللوا غيابه عن الحروب، ونحن نأخذها كلها على محمل الجد، ذلك أنها في نهاية المطاف تشرح لنا لماذا فشل علي في سنواته الخمس الأخيرة حين قرر فجأة، وبلا سابق خبرة في قيادة الجيوش، أن يخوض حروباً مركبة ومفتوحة.

استقر عليّ في الكوفة، الحاضرة التي كانت حتى ذلك الوقت بلا تاريخ. ومن هناك قرّر أن يأخذ لنفسه السلطان بقوّة السلاح.خاض الحرب الأهلية الثانية ضد مسلمي الشام هذه المرّة، بعد حربه مع مسلمي الحجاز.أفضت حربه الثانية إلى حرب ثالثة ضد المنشقين من جيشه في حروراء، وكانوا مجموعة دينية راديكالية أحست بأنها تعرضت للخيانة من قبل القائد. فقد خاضوا حربهم إلى جانبه معتقدين أنهم يساهمون في تثبيت دعائم الدين لا ركائز الحكم. غير أن قبول عليّ بالصلح بعد حرب صفّين جعلهم يرون المعركة داخل السياسة لا في الدين، فتذكروا قتلاهم وامتلأوا غضباً.بانت لهم حقيقة أخرى:الحاكم الذي خاض بهم الحروب الدينية اعترف بحق خصومهم في الحياة، وبأنهم إخوة في الدين وفرقاء في السياسة.سرعان ما تدهورت الأمور إلى حرب أهلية ثالثة، وذلك متوقع تحت قيادة رجل لم يمارس السياسة والحرب لربع قرن، وللتو خرج من الصحراء ورأى باقي العالم.كان يخلط الدين والسياسة والاصطفاء على نحو قاتل،فهو

صاحب أطول قائمة مناقب وامتيازات، وهو المفسّر الأعظم لدين الله، وهو التمثيل الشعبي النزيه. اللعبة المركّبة تلك أفلتت منه باكراً، ولكنه فضّل أن يدخل في رحلة قمار أدت إلى ما بتنا نعرفه جميعاً.

لم يفض التحكيم إلى نتيجة تذكّر سوى مزيد من التمزّق داخل جيش علي. فلم يحتمل جيشه حدثاً سياسياً مثل الصلح أو التسويات، ذلك أنه بناه على أساس كهنوتي محض: فهو الوريث النبوي للحكم، وأي مساس بحقه هو مساس بالدين في حقيقته. وعندما اضطرته نتائج الحرب إلى النزول إلى السياسة وجد نفسه وحيداً، يبحث عن لغة جديدة، لغة في السياسة، ولم يجد ما يكفيه منها. تركه الحفّاظ، الحرورية، اليمانية، الفقهاء، وهدده المتمردون الذين، كما قال زعيمهم، لو مضت التسوية فسوف يدفعون الثمن. فهم المطلوب رقم واحد في أي عملية تفاوضية تهدف إلى إنهاء الحرب الأهلية.

قبل صفّين وما بعدها أجرى معاوية، حاكم الشام، اختبار جهد متعدد المستويات لقدرة حاكم الكوفة على الحرب والحشد. شنّ عدداً متلاحقاً من الغارات العسكرية على أطراف العراق من الشمال إلى الجنوب، وعلى حواضر أخرى. نجحت بعض تشكيلاته العسكرية في الوصول إلى القرب من الكوفة. كيف تعامل عليّ مع ذلك الاختبار؟ إذا ما تتبعنا الطريقة التي اتخذها عليّ لمواجهة تلك الغارات فسيكون بمقدورنا فهم أمور كثيرة مثل: علاقة ملتبسة مع أهل العراق، ثقة

شعبية متدنية بقدراته، افتقاره الشامل للغة السياسية، افتقاره لجيش عسكري متماسك ومركزي، ووقوعه ضحية للنمور التي جلبها معه من حفلة التمرد في المدينة.

أولى الغارات:

تلقى معاوية أخباراً تقول إن أصحاب عليّ مختلفون عليه، وأن حالة من اللااستقرار تسود البلاد التي يحكمها. لم يفده كل ما حمله من قائمة المناقب والمكارم من المدينة لفرض شكل معقول من الامتثال الشعبي. كان يفتقر إلى الكاريزما رغم الترسانة الضخمة من مدائح الذات، وجيش من صنّاع تلك المدائح. اتخذ معاوية قراراً عسكرياً بمباغتة علي في أطراف مملكته، انتدب الضحّاك بن قيس الفهري للمهمة، وجعله قائداً على قرابة أربعة آلاف مقاتل. أعطاه المهمة في كلمات قليلة، أن يصبح في بلد ويمسي في آخر.[1]

كيف تعامل علي مع هذا التحدّي؟

دعا أهل الكوفة إلى الخروج، أي النفير العام، فردوا عليه ردًا ضعيفاً ورأى منهم فشلا وعجزاً.[2] قام عليّ في أهل الكوفة خطيباً وهاجياً. عاود هجاء شعبه، وملاعنته، في الغارات القادمة. قال لهم "**وددت والله أن لي بكل عشرة منكم رجلاً من أَهْل الشَّامِ وأني صرفتكم كما يصرف**

[1] البلاذري، **تاريخ الأشراف**، الجزء الثاني، ص: ٤٣٧. كما عند اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني، ص: ١٧١.

[2] البلاذري، المرجع السابق.

الذهب، ولوددت أني لقيتهم عَلَى بصيرتي فأراحني اللَّه من مقاساتكم ومداراتكم"[1]. ثُمَّ خرج يمشي إلى نحو الغريين، حَتى لحقه عبد اللَّه بن جعفر بدابة فركبها.

إذا تحوّلت في إمارة علي، في الكوفة، فسيكون بمقدورك رؤيته خارج حزام المناقب الشهير: قائد لا يستمع إليه أحد، سياسي يفتقر إلى الدراية والخيال والذكاء الاجتماعي. كما يمكن معاينة شعبه المتقاعس، غير المعني بمعارك الأمير ومخاوفه. ما إن سمع علي بأول غارات معاوية حتى تمنى أن يستبدل كل عشرة من شعبه بمواطن واحد من شعب معاوية. وضع بنفسه موازين القوى والقدرة، واعترف بنجاح خصمه في تأسيس دولة يصدر عنها جيش متماسك. ألقى بنفسه في الكوفة بين يدي جماعات من المتمردين سيصفهم قائلاً "يا أشباه الرجال"، وسيخاطب معاوية شعبه بلغة على النقيض ممّا صدر عن ابن أبي طالب.

الغارة الثانية:

قبل أن يلتقط عليّ أنفاسه باغته معاوية بالغارة الثانية، هذه المرة بقيادة سفيان بن عوف الغامدي على رأس ستة آلاف من أهل الشام ذوي بأس وإناءة، بحسب وصف البلاذري في الأنساب. كانت مهمة ابن عوف واضحة: أن يعبر الأنبار حتى المدائن ويقترب من الكوفة. أنبأه معاوية عن فلسفة ما يقوم به "إن الغارات تنخبُ – أي تخلعُ– قلوبهم، وتقوي أنفس أوليائنا منهم".

[1] **أنساب الأشراف**، الجزء الثالث، ص: ١٩٨. كذلك في **تاريخ دمشق**، الجزء الأول، ص: ٣٢١. وفي **كنز العمال**، الجزء الحادي عشر، ص: ٣٥٦.

حين بلغ عليّاً خبرُ الغامدي كتب كتاباً إلى شعبه، واتخذ رجلاً يقرأه عليهم على مقربة منه. كعادة علي مع أهل الكوفة، مع شعبه، يبادر إلى سبّهم قبل أن يسمع منهم جواباً. هذا ما كتبه تحت تأثير الغارة التي بلغت تخوم المدائن:

"دعوتكم إِلَى جهاد هَؤُلاء القوم ليلا ونهارًا، وعلانية وسرًا وأمرتكم أن تغزوهم قبل أن يغزوكم فإنه ما غُزي قوم فِي عقر دارهم إِلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي وعصيتم أمري واتَّخَذتموه وراءَكم ظِهرِيّاً، حتَّى شنت عليكم الغارات من كُل ناحية. فيا عجباً عجباً يميت القلب، ويجلب الهم، ويسعر الأحزان من جد هؤُلاءِ القوم فِي باطلهم، وفشلكم عن حقكم. فقبحاً وترحاً حيث صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم وَلا تغيرون، ويعصى اللَّه فترضون. يَا أشباه الرجال– وَلا رجال– يَا أحلام الأطفال وعقول ربات الحجال لوددتُ أني لم أركم وأن اللَّه أخرجني من بين أظهركم فلقد وريتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهمام أنفاسًا، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش إن ابْن أَبِي طالب شجاع ولكنه لا علم لَهُ بالحرب"[1].

[1] ورد النص في **الكامل في اللغة والأدب**، للمبرّد، الجزء الأول ص: ٢٠. وفي تاريخ **الأشراف للبلاذري** ص: ٤٤٢

نحن هنا بإزاء شعب نفذ عصياناً شاملاً ضد حاكمه وجرّده من سلطته، وحاكم يعترف بأن قريشاً بأسرها لا تراه أهلاً للحرب. لقد جنى معاوية ما أراده، وانخلع قلب الحاكم، فلم يجد سوى كيل السباب لشعب من "أشباه الرجال"، كما يراه.

الغارة الثالثة:

دفع معاوية بالغارة الثالثة على أراضي علي بن أبي طالب، هذه المرّة بقيادة النعمان بن بشير الأنصاري، من أصحاب النبي. قبل أن يرسل الغارة الثالثة بعث معاويةُ النعمانَ مع أبي هريرة الدوسي إلى عليّ طالبين منه أن يسلّم قتلة عثمان: "ليُقتلوا به فيصلح أمر الناس"، وفقاً لنص الخطاب كما يرويه البلاذري في الأنساب. ولكن عليّاً امتنع عن إجابتهما إلى شيء مما قدما له. عاد الرسل بما أراده معاوية: رفض علي المساس بقتلة عثمان. قيل لأهل الشام مجدداً إن عليّاً يتمالأ مع القتلة والمتمرّين ويتعالى على العدل. بعد ذلك دفع معاوية بألفي مقاتل مع النعمان بن بشير للإغارة على غرب الفرات. حين بلغ عليّا خبر إغارة النعمان ذهب إلى شعبه وسبّهم كعادته، قال خطيباً:

"عجبا لكم يا أهل الكوفة أكلما أطلت عليكم سرية وأتاكم منسر من مناسر أَهْل الشَّامِ أغلق كُلّ امرئ منكم بابه قد انجحر فِي بيته انجحار الضب فِي جحره، والضبع في وجارها، الذليل والله من نصرتموه، ومن رضي بكم رمى بأفوق ناصل فقبحا لكم وترحا، قد ناديتكم

وناجيتكم. لا أحرار عند النداء، وَلا إخوان عند النجاء، قد منيت منكم بصم لا يسمعون، وبكم لا يعقلون، وكمه لا يبصرون"[1]

تكشف رحلة عودة النعمان بن بشير إلى الشام، بعد لقائه بعلي وقبل إغارته عليه، كيف أدى مقتل عثمان إلى ترسيم الحدود الأخلاقية والشعورية بين الأمصار المسلمة. يروي البلاذي عن النعمان أنه قال "سرت ليلة فضللت، ثُمَّ إني دفعت إِلَى ماء لبني القين وإذا امرأة تطحن فِي خباء لَهَا وهي تقول:

شربت عَلَى الجوزاء كأسًا روية وأخرى عَلَى الشعراء إذا ما استقلّتِ

مشعشعة كانت قريش نفافها فلما استحلّت قتل عثمان حلّتِ

قال النعمان لنفسه: فعلمت أني في حد الشام وأنه قد بلغت مأمني واهتديت.

كان الموقف في الشام حازماً تجاه مسألة اغتيال رأس الدولة، ولكن عليّاً راوغ في الأمر كثيراً، وأخضع المسألة الخطرة برمّتها للابتزاز السياسي، إذ طلب عبر الوسطاء أن يقدم معاوية البيعة لقاء أن يفتح عليٌّ ملف مقتل الخليفة. الفرق بين موقف الشام وموقف علي من مسألة مقتل

[1] البلاذري، **أنساب الأشراف**، الجزء الثاني، ص: ٤٤٧. ابن أبي الحديد، **شرح النهج**، الجزء السادس، ص: ١٠٢.

الحاكم هو الفرق بين رؤيتين للدولة: رؤية قبلية أحادية صحراوية يمثلّها علي، وتخيّل مركّب ناتج عن خبرة مع الإمبراطوريات والدول في تاريخ الشام، وتلك يمثّلها معاوية ومن معه. صار مقتل الخليفة، رأس الدولة، إلى مسألة من يوميات الناس، ولو أن عليّاً – الذي قدم إلى السياسة من عزلة ربع قرن– امتلك أدنى قدر من التقدير السياسي لما قامر في حروب انتحارية تركت أثرها لمئات السنين.

الغارة الرابعة:

دعا معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاري وأرسله إلى عليّ على رأس ثلاثة آلاف من المقاتلين. سار بن مسعدة حتى وصل تيماء، ولما سمع به عليّ أرسل إليه ابن عشيرته المسيب الفزاري. أدى قرار علي باختيار المسيّب على رأس الحملة إلى معضلة أخلاقية عصيبة، إذ انقسمت فزارة بين بن مسعدة والمسيب وقاتلت نفسها حتى كادت تفنى. لم يكن علي، بسبب من خفته السياسية وانعدام خبرته، يضع اعتباراً لمثل تلك المسائل الاجتماعية الخطرة. حوصر بن مسعدة، رجل معاوية، في حائط حول حصن تيماء، فقام المسيب، رجل علي، بجمع الحطب حول الحائط وأشعل فيه النار. ولكن الناس هبّت ورجته أن يطفئ النيران وأن لا يحرق المحاصرين ففعل. رجلٌ من فزارة اسمه عبدالرحمن بن أسماء فتح لهم في الليل طريقاً للهرب. بلغ النبأ عليّاً، وكان عليّ يحرق خصومه وكان قادته يحرقون الأسرى كما حدث مع ابن الحضرمي في البصرة. عندما علم

عليّ أن المسيب الفزاري أطفأ النيران، وأنه تساهل مع أبناء عشيرته، قام غاضباً ونهره أمام الناس قائلاً "داهنت وضيّعت"، ثم ربطه إلى سارية من سواري المسجد[1].

من قبل أقدم جارية بن عبد الله، القائد الذي أرسله عليّ لإخضاع البصرة، على إحراق ابن الحضرمي ومن بقي معه من جنوده. كان ابن الحضرمي قد وصل البلدة قادماً من الشام، وكانت مهمته زعزعة يقين الناس بقائد العراق. ولفرط سعادة عليّ بصنيع جارية فقد عيّنه على رأس جيشه الذي أرسله إلى اليمن.

[1] البلاذري، **أنساب الأشراف**، الجزء الثاني، ص: ٤٥٠

ما ورثه الحسن عن أبيه

دخل عبدالرحمن بن ملجم مصر ضمن جيش عمرو بن العاص، وعاش فيها فقيهاً ومعلماً. وفي خطاب من عُمر إلى ابن العاص قال الأوّل للثاني "قرّب دار عبد الرحمن بن ملجم من المسجد ليعلم الناس القرآن والفقه"[1]. وبعد مقتل عثمان ترك مصر والتحق بعلي في الكوفة. ما إن بلغها حتى ترك الفقه وحمل السلاح، مثل كثيرين ممن دخلوا الكوفة وبايعوا عليّاً. خاض ابن ملجم حروب علي الكبرى ضد مسلمي الحجاز أولاً في الجمل، ثم ضد مسلمي الشام في صفين، وأبلى بلاء حسنا لصالح مولاه. وعندما رأى ما آلت إليه حروب علي من فوضى وتفكك، وتيقن أن الرجل قد تاهت به المراكب، وصار يقاتل جيشه بجيشه، قرر قتله. **نجح فيما عزم عليه، ذلك أن الكوفة كانت قد حولته إلى قاتل**. في اللحظة التي سقط فيها علي لم يكن قد بقي تحت سلطته سوى أمصار مشتتة وفوضوية تضرب فيها الجريمة يمنة ويسرة، وكانت اليمن ومصر والحجاز، فضلاً عن الشام، قد دانت لمعاوية ودخلت في طي إمبراطورية الجديدة.

خلال أعوام ثلاثة، بين ٣٧–٤٠ هجرية، بنى معاوية قوات مسلحة ضاربة، وتوسعت مملكته حتى بلغت اليمن، بخلاف علي الذي فقد الأرض والإقناع والرجال. **سنذهب إلى عام الجماعة، ٤٠ هجرية**، لنلق نظرة على الجيشين اللذين التقيا في مسكن، بالقرب من المدائن: جيش الولاية بقيادة الحسن، ودولة معاوية. كانت أقصر معركة في تاريخ الإسلام، حسمت بالفجيعة. فأمام

[1] الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني، ص: ٥٣٩.

هدير الإمبراطورية فرّ قادة الحسن وخلفهم ثلث الجيش، كما تروي مصادر شيعية عديدة، والتحقوا بجيش معاوية. فما كان من أمير الكوفة الجديد، الذي سيلقب نفسه بالخليفة الخامس، إلا الاستسلام والعودة إلى المدينة تاركاً أحلام أبيه تلفظ أنفاسها تحت أقدام أول إمبراطورية أقامها العرب. منحه العرب الحسنَ لقب السيّد، ووصفوا استسلامه بالحكمة. كان الناس قد سئموا حروب الطالبيين، واشتاقوا لوضع سياسي آمن تحتكر فيه سلطةٌ مركزية آلة القهر، كما كان أيام الخلفاء الثلاثة. ساعد استسلام الحسن على عودة ذلك الوضع المبتغى، وهو ما دفع العرب لتتويج المهزوم بوصفه السيد الحكيم.

ابن ملجم في المسجد

هرع أهل الكوفة إلى الحسن ابن علي وبايعوه ولكن الرجل تردد وتلكأ فقد رأى ورطة أبيه في تلك الأرض المخيفة، دار الفوضى التي اتخذها عاصمة له. لكنه استسلم لقدره وخاض التجربة مؤملاً أن تكون أقداره خيراً من أقدار أبيه. بعد حوار قصير توسط فيه ابن عباس خرج الحسن إلى مناصريه وطلب منهم مبايعته على "تحاربون من حاربت وتسالمون من سالمت"[1]، ولكن أهل الكوفة أبوا إلا أن يبايعوه على قتال الحالين الضالين أهل الشام كما فعلوا مع أبيه.[2] أفزع أهل الكوفة أن يسمعوا كلمة السلام فذهبوا إلى الحسين ليبايعوه بدلاً عن أخيه ولكن الأخير ردهم إلى الحسن. يعرف الحسن بلاد أبيه، ويعرف شعب علي حق المعرفة. فهو لا يزال يتذكر ذلك

[1] ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، تحقيق الزيني. الجزء الأول، ص: ١٤٠

[2] المصدر السابق

اليوم حين قاد فيه أبوه حشود المرتزقة وكاد يفتك بزوجة النبي محمد، يروي الحسن عن ذلك اليوم "لقد رأيت علياً يوم الجمل يلوذ بي وهو يقول يا حسن ليتني مت قبل هذا بعشرين سنة"[1] . كان علي قد هاله صنيعه وفجعته الحقائق، وكان الحسن إلى جواره يقاتل ويرى. سبق للحسن أن قال لوالده وهما ماضيان إلى الكوفة قادمين من المدينة "لو كنت في جحر وكان للعرب فيك حاجة لاستخرجوك من جحرك"[2]، ولم يكن عليّ آنذاك يسمع سوى نفسه، وسوى اعتقاده أنها فتنة وأنه ما من فرج للفتنة إلا "برجلّ منا آل البيت"[3]. تأكد علي مع الأيام أن العرب تركته في جحره في الكوفة وتدبرت شأنها بعيداً عنه، فهي لم تكن ترى لبني هاشم ذلك الحق الذي يرونهم لأنفسهم. عاش علي بن أبي طالب أربعة أعوام في الكوفة، عمل خلالها، من خلال آلية حكم تستند كلّياً إلى الطاعة مقابل القداسة. توقّع عليّ أن يتعامل المسلمون مع حكمه كما فعل العرب مع النبي: الطاعة، التقديس، والفداء. ذلك أنه كان بالفعل يخلط بين الدين والسياسة، ولم يدرك حقيقة أنه بموت النبي ظهرت السياسة وأصبح الدين مشاعاً لكل الناس. أورث أبناءه حاضرة أبعد ما تكون عن الاستقرار، وشعباً لم يجلس يوماً ليفهم ما معنى الإسلام الذي جاء به النبي محمد. فمنذ الليلة التي دخل بها عليّ إلى العراق والحروب دائرة في الأرجاء. لنترك الحسن بن علي يحدثنا عن الكوفة بعد أن تركها وعاد إلى مدينة الرسول، العاصمة الثقافية والروحية

---

[1] الحارث بن محمد، **مسند الحارث**، الجزء الأوّل، ص: ٧٦١.

[2] محب الدين الطبري، **الرياض النظرة**، الجزء الثالث، ص: ٢٣١

[3] المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٣٣،ص: ٣٦٨. كذلك عند ابن أبي شيبة في **المصنّف**، الجزء ١٤، ص: ٢٢٥

للإمبراطورية الإسلامية. يقول الحسن عن شعب أبيه "قوم لا يرجعون إلى حق، ولا يقصرون عن باطل، أما إني لست أخشاهم على نفسي ولكني أخشاهم على ذلك، وأشار إلى شقيقه الحسين"[1]. حاول أهل الكوفة إغراء الحسن بالسلطة، أرسلوا خطاباتهم تترى، وكان يأمر جاريته بأن تغمس رسائلهم في الماء. بعد موته بحوالي اثني عشر عاماً حدث ما كان يخشاه. فقد استطاع أهل الكوفة استقدام شقيقه الحسين من المدينة واعدين إياه بالحكم. وفي تلك المضيعة التي قُتل فيها عليّ أزهقت روح الحسين ابن عليّ ومعه العشرات من آل بيته. وبعد وقت سيقتل فيها زيد بن علي بن الحسين، الحفيد. العراق، بلاد عليّ، آلت إلى ثقب أسود ابتلع الطالبيين جيلاً بعد جيل.

بعد مقتله ترك علي عاصمته في حالة تسودها الفوضى والجريمة، وكان ذلك دليلاً آخر على فشله كسياسي وكمرشد ديني. وعند أول اختبار سقطت دون قتال، ولم يكن ذلك هو الانكشاف الوحيد لعاصمة علي. إذ عاين أهله ومعاونوه أن السلطان القتيل عجز عن بناء نظام أخلاقي وقيمي، وأن عاصمتهم أحراش يأكل بعضها بعضاً، وذلك ما ستؤكده اللحظة الحرجة حين وقفت خيل معاوية على أطرافها.

[1] الطبراني، **المعجم الكبير**، رقم ٢٦٩١

ما بعد صفّين

في الحرب تلك أبلى علي بلاء حسناً، ويزعم مريدوه أنهم كادوا يكسبون المعركة لولا خديعة التحكيم. مرت ثلاثة أعوام على القائدين: علي ومعاوية. نحن الآن في رمضان من العام ٤٠ للهجرة، ضربة في الرأس تقتل علياً فيقرر معاوية اقتحام الكوفة. يرسل الوريث، الحسن، رسله في أمصار أبيه يستنفرون الناس للقتال مستخدمين كل وسائل الدعاية، حتى إنهم كانوا ينادون في الأسواق "أين من جدته خديجة ممن جدته فتيلة"[1]. بعد عناء صنع الحسن جيشاً هشاً من المرتزقة واستطاع إقناع الخوارج، شياطين أبيه الذين يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، بالقتال إلى جانبه. بات جيشه يتشكل من هذه الفئات "بعضهم شيعة له ولابيه، وبعضهم محكمة (خوارج) يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع بالغنائم، وبعضهم شكّاك، وبعضهم أصحاب عصبية"[2]. عاد الخوارج، إذن، إلى الدين وكانوا قد أخرجوا منه، وصاروا رجال الحسن المجتبى.

كان الحسن، بما له من حدس، يرى نتيجة المعركة، وقد اتخذ قراراً في سره ولكنه أراد أن يمضي بالتجربة إلى منتهاها. وضع على قيادة جيشه الخليط، وكانوا بضعة آلاف، عبيدالله بن العباس بن عبدالمطلب. سار القائد بجيشه حتى وصل مسكن، وعندما بلغه هدير جيش الشام – يقدره المؤرخون بما يزيد عن سبعين ألفا من المقاتلين المنضبطين– حتى ارتعدت مفاصله، وتنحّى جانباً،

[1] ابن أبي الفتح، **كشف الغمة**، الجزء الثاني، ص: ١٦٤–١٦٥

[2] الشيخ المفيد، **الإرشاد**، الجزء الثاني، ص: ١٠. كذلك عند المجلسي في **بحار الأنوار**، الجزء ٤٤، ص: ٤٦

ثم اعتزل المعركة. يؤكد المؤرخون الشيعة أن عبيد الله التحق بجيش معاوية، جارّاً معه آلاف المقاتلين.

أدرك الحسن في تلك اللحظات النكبة التي أورثه إياها والده، وتبين له أي وهم عاشه أبوه باسم أمير المؤمنين. إذ عاش اسماً بلا مسمى، فلا هو خليفة إذ الأرض يحكمها خصمه، ولا مرتزقته – الذين لا يرجعون إلى حق، كما يصفهم – بالمؤمنين. آنذاك أرسل الحسن خطاباً إلى معاوية يبلغه استسلامه. قال للقريبين منه، كما في الاحتجاج للطبرسي: والله لو وجدت أنصاراً لقاتلت معاوية ليلي نهاري. فشلت عملية التعبئة العامة في مشهد شديد الشبه بالعصيان العام، أو الخلع. استصرخهم بأعلى ما يظنّه عن قداسة نفسه، قال: "أنا ابن النبي، أنا ابن الوصي، أنا من أهل البيت الذي كان جبريل ينزل إلينا ويصعد من عندنا"[1] ولم يفلح ذلك في شيء. سقطت عاصمة علي أمام أول جيش قادم من الغرب، من الشام، وكان يفترض أن تكون محمية الإسلام الأكثر ضراوة ومنعة كونها العاصمة ولأنها تطل على شرق متلاطم وعميق القرار.

المرة تلو الأخرى يؤكد تاريخ علي أنه كان فقيراً إلى أي ملكة استراتيجية وأن كونه زوج ابنة النبي لا يكفي لإقامة إمبراطورية ولا للحفاظ عليها. فما جرى في عام الجماعة، استسلام الحسن وجيشه قبل انطلاق السهم الأول، يجعلنا نتأكد أن عليّاً لو كان يملك ما يكفي من الحكمة

[1] ابن أبي الفتح، كشف الغمة، الجزء الأول، ص: ٥٤٧

والمعرفة والخيال لما خاض كل تلك الحروب، ولكانت أقداره اختلفت، ولوجد الحسن في عاصمة أبيه شعباً غير الشعب الذي رآه.

كان الحسن يعرف المصير، وقد اختبر فشل والده في بناء عاصمة تتمتع بقدر من الإلهام والانضباط. تساجل مع والده زمنا، ولكن الأب الذي خذلته المدينتان (المدينة ومكة)، وتركه كبار الصحابة يخوض حروبه وحيداً، كان قد قرر أن يمضي في عزلته بصرف النظر عن المآلات. عندما قرر الاستسلام صرخ فيه مشايعو والده "امض بنا نحارب، ألا تعلم أن أباك سيعود قبل يوم القيامة"، فيرد عليهم بحذر: فلماذا زوجنا نساءه وتقاسمنا ميراثه إذن؟ مع الأيام ستشق تلك الفكرةالتي سخر منها الحسن – عودة الإمام من قبره– طريقها وستصبح دِيناً.

في عاميه الأخيرين ولد لعليّ طفلان فاختار لهما اسمين سياسيين في محاولة منه لرمرمة علاقته بالمدينة ومكة. أسمى الأول أبابكر والثاني عثمان، وكانت إشارة باهتة من رجل يغرق في مضيعة من الأرض. إذ كانت خيل معاوية قد وصلت مكة وما بعدها، بينما هو غارق في فوضى شامله ضد نفسه ومشايعيه وحلفائه، ولا يدري ما الذي يفعله بذلك الجحيم المسمى الكوفة. ما عاينه الحسن في دولة أبيه، وما اختبره من الوهم، هو عينه ما رآه الفقيه اليمني عبدالرحمن بن ملجم. يصبح ابن ملجم في الأدبيات السنّية والشيعية أحد أتعس رجلين عرفهما العالم، الثاني هو عاقر الناقة. ارتكب ابن ملجم جريمته داخل مناخ من الفوضى والجرائم وحرب الكل ضد الكل، وكان

بمقدور أي رجل متوسط الحكمة أن يتوقع تلك المآلات، ليس للحاكم وحسب بل لخلافة علي برمّتها.

يعرف أهل المدينة أن صاحبهم قتل ضحية لطموحه السياسي، ويعلم أهل العراق أنهم فشلوا في أن يكونوا شعباً صالحاً للعائلة المقدسة، ويعرف اليمانون أن رجلاً منهم قتل علياً وأن الأخير كان يستحق نهاية أفضل. ذلك الأسى العام، المتفق عليه ضمناً، دفعهم جميعاً للتعاطف مع العائلة التي مزقها سوء فهمها للدين، واعتقادها أنه سلطان للعائلة. مضوا جميعاً، سنة وشيعة، يخترعون القصص والأحاديث عن كرامات الرجل وعبقرية عائلته، ونادراً ما تجرأ باحث على المساس بتلك المرويات. ثمة شظايا بسيطة للرفض والاحتجاج نجدها عند ابن تيمية وهو يرفض حديث "سيدا شباب أهل الجنة"، رغم صحة أسانيده، منطلقا من فهمه للعدل والمساواة. بقيت العائلة المقدسة تهرع إلى السيف كلما وجدت ثغرة، ويعيد التاريخ نفسه مرة على شكل ملهاة وأخرى على هيئة مأساة، حتى إن الأصفهاني (ت. ٣٥٦ هجرية) خصص كتاباً ضخماً لمغامرات تلك العائلة وقتلاها حتى مطلع القرن الرابع الهجري، وضع له عنوانا مروعاً: مقاتل الطالبيين.

العدل كما تخيّله الحُسين

كان لعلي بن أبي طالب ١٤ ابناً ذكراً و١٧ ابنة. زوّج كل بناته، عدا ثلاث منهن، لأبناء أخيه عقيل وعمّه العبّاس. كان يرى، كما تشير علامات تاريخية كثيرة، قداسة خاصة في نساء بني هاشم، ولا بد من إبقاء تلك الجِينة[1] داخل الدائرة المختارة والنأي بها عن دنس الإنسان العادي. من أبنائه الأربعة عشر برز الحسن والحُسين، وهما ابنا فاطمة، وتراجع الآخرون من أولاد النساء الأخريات إلى الظل. رافق الرجلان أباهما في معاركه التي خاضها في سبيل التاج، وبعد مقتله اتبعا سبيله. نصّب الحسن نفسه خليفة ودعا للنفير العام ضد الجيش الجرّار القادم من الشام. وحين أدرك حقيقة أن دعاته ومناصريه لم يجمعوا له أكثر من ستة آلاف مقاتل استسلم لحاكم الشام، وسلّم ما في يديه من البلدان وعاد إلى المدينة. بينما هو يقترب من التوقيع على وثيقة الاستسلام نهره شقيقه الحُسين، وكان أقل منه إدراكاً للمخاطر، فرد عليه الحسن غاضباً: والله لقد هممتُ أن أسجنك في بيت وأطبق عليك بابه حتى أفرغ من هذا الشأن ثم أخرجك[2]. الشأن الذي كان الحسن يريد أن يفرغ منه سريعاً هو توقيع وثيقة الاستسلام، إذ كان جيش معاوية قد عسكر بالقرب من الكوفة، عاصمة الطالبيين، وكان يُسمع له هدير في حاضرة علي. لم يحتمل المؤرخون تلك الحقيقة فعملوا على منح الإمام المهزوم، الحسن، لباس الحكمة والنبالة كونه حق دماء المسلمين بقراره ذاك، وأنه اتخذ طريقاً كان بمقدوره أن يذهب في سواه. غير أننا نجدهم

---

1 الجِينة: الجين

2 ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء الثامن، ص١٦١

يتفقون على نقل حديث الحسن إلى مستشاريه وأهل بيته عن السبب الذي دفعه إلى الاستسلام: ليس لديه ما يكفي من الرجال ليخوض الحرب. وحين عابه رجال الكوفة، وثمة روايات تقول إنه اعتدوا عليه بالضرب وطعنوه، كان يرد عليهم قائلاً إنه إنما فعل ذلك لأنه لم يجد فيهم رجالاً[1].

لا مكان للحكمة في هذا السياق، وبدلاً عنها تتأهل الحقيقة لتكون في الواجهة. استسلم الحسن لا لأن الناس خذلوه كما فعلوا مع والده، بل لأنه نفسه وقع ضحية لأوهامه، ظاناً أن الناس ترى له القداسة التي يراها لذاته. تلك كانت معضلة أبيه الذي احتفظ له التاريخ بعشرات من الخطابات والمكاتبات يذم فيها شعبه ويكيل له السباب، غارقاً في دهشته من البشر الذين لا يبدون ما يتوقعه من الفداء لزوج ابنة النبي. استطاع ابن أبي الحديد، المؤرخ المعتزلي المرموق، في شرحه لنهج البلاغة أن يقرّب الصورة على نحو بديع، أعني علاقة علي بشعبه، الشك والقطيعة بين الحاكم والمحكوم. أو ما ستسميه سهير القلماوي في بحثها المرموق حول أدب الخوارج بأول عصيان مدني نفذته الجماهير العربية ضد الحاكم.

بعد عودة الرجلين، الحسن والحسين، إلى المدينة اتخذا قراراً بإصلاح العلاقة مع معاوية. ذكر البلاذري في أنساب الأشراف، الجزء الثالث، والعاملي في وسائل الشيعة، الجزء 17، أن معاوية كان يعطي الحُسين ألف ألف درهم في العام [أي مليون درهم]، فضلاً عن عروض وهدايا من كل ضرب، بتعبير البلاذري. يندرج تحت "من كل ضرب" الجواري والجاه والتسامح. لم يتخل

[1] كما عند البلاذري في مناقب الأشراف، البداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ دمشق لابن عساكر.

الحُسين عن حلمه بالرئاسة، حتى إن مؤرخاً كبيراً كابن كثير يضع عنواناً لخروج الحُسين من مكة إلى الكوفة على هذا النحو: قصة الحسين بن علي بن أبي طالب وخروجه في طلب الإمارة. ابن كثير، كما هم سائر المؤرخين، شديدو التشيّع لآل علي بن أبي طالب، ولم يكونوا يرون مشكلة في ادعاء آل البيت للحق المطلق في حكم الناس. صادق الحُسين حاكمَه معاوية، واعتاد على عطاياه وهداياه عشرين عاماً [بين ٤٠-٦٠ هـ]. في الفترة تلك عاش الحُسين متنقلا بين مكة والمدينة، وكان يفد مع أخيه الحسن على معاوية إلى الشام، ويجري بينهما سجال حميد، كمثل ما سيذكره ابن كثير في البداية والنهاية. ففي واحدة من المرّات وهبهما معاوية مائة ألف درهم وغمزهما قائلاً "خذاها مني وأنا ابن هند". فيرد عليه الحُسين قائلاً "والله لن تعطي أنت ولا أحد قبلك رجلاً أفضل منّا"[1].

أفضل رجال العالم، كما يعتقد الحسين عن نفسه، غادر المدينة إلى مكة سنة 60 للهجرة ما إن وصله خبر موت معاوية، ومن هناك قصد العراق لاسترداد حقّه في المُلك. أرسل أوّل الأمر مسلم بن عقيل، ابنه عمّه، لاستطلاع رأي الناس ودعوتهم إلى البيعة. لنستمع إلى ابن كثير في البداية والنهاية وهو ينقل لنا مشهد وصول مسلم بن عقيل إلى الكوفة: "فجاءوا إليه فبايعوه على إمرة الحسين وحلفوا له لينصرنّه بأنفسهم وأموالهم". لم يشك ابن كثير لحظة واحدة في أن الأمر متعلق برغبة شديدة في الإمارة، أو ما يسميه الحُسين بالحق. نجحت مهمّة ابن عقيل أول

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء الثامن. صفحة ١٦١

الأمر، وانتهى به الحال إلى صدام عسكري دموي مع ابن زياد، حاكم الكوفة. وحين أتي به أسيراً سأله ابن زياد "كأنك تظنّ أن لكم في الأمر شيئا؟" فيرد عليه مسلم بن عقيل: لا والله ما هو بالظن ولكنه اليقين[1].

نحواً من هذا النقاش سيجري في الوقت نفسه في مكان بعيد عن الكوفة، في مكّة. فبعد مغادرة الحسين لمكّة يعاتب عبد الله بن الزبير ابنَ عبّاس قائلاً: والله ما ترون هذا الأمر إلا لكم، ولا ترون إلا أنكم أحق به من جميع الناس. فيرد عليه ابن عبّاس: "إنما يرى من كان منه في شك، ونحن من ذلك على يقين. أخبرني عن نفسك بماذا تروم هذا الأمر؟ " يأتيه رد ابن الزبير: بشرفي. ويسأله ابن عبّاس، مستغرباً: بماذا شرفت؟ إن كان لك شرف فإنما هو بنا، ونحن أشرف منك[2].

وبما أننا قد أتينا على ذكر ابن الزبير، الذي سيقود ثورة انتحارية هو الآخر، فإننا نجد في خطابه السياسي لغة أخرى أقل حتميّة، وذات طبيعة قانونية مقارنة بلغة الحسين. فهو يخاطب جماعته مشيراً إلى بني سفيان بحسبانهم "من في عنقهم حقوق الناس". كان يحيل ثورته إلى الحقوق وإلى الناس، إلى ما هو عادل وبشري. يقف الحسين في موضع بعيد كلّياً عن تلك المسألة، ولا ترد عنده إلا مغمورة بالحديث عن حقّه، وعن استثنائيته هو وأسرته. إذ يقف أمام طلائع جيش ابن زياد، ويخاطبهم "إن هؤلاء قوماً لزموا طاعة الشيطان، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا

[1] البلاذري، أنساب الأشرف

[2] البلاذري، أنساب الأشراف. ابن أبي الحديد، شرح النهج

بالفيء وأنا أحق من غيري، وقد أتتني كتبكم، فإن تتموا عليّ بيعتكم تصيبوا رشدكم"[1]. لا يوجد في الخطاب السياسي للحسين ما يدل على أن الرجل يرى الحكم ملكاً لكل الناس، أو أنه مساو للبشر، يتشارك معهم الدرجة نفسها من الحق والواجب. ثمة مهمتان لا ثالث لهما، كما تدلّنا خطاباته الثورية: مهمّته في أن يصير حاكماً، ومهمّة العامة في أن يجعلوا ذلك الأمر ممكنا. ففي خطابه إلى أهل الكوفة غداة وصلته أولى رسائل الاستطلاع من ابن عمه يقول:

"أما بعد، فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع ملئكم نصرنا والطلب بحقنا، فأثابكم الله على ذلك أعظم الأجر"[2].

وفي العراق سيقف الحسينُ وجهاً لوجه أمام الوليد بن عتبة [بن أبي سفيان]، وسينهره الحسين: "يا ظالماً لنفسه، عاصياً لربه، تحول بيني وبين قوم عرفوا من حقي ما جهلته أنت وعمّك". دائماً ما يقرن الحسين بين رضا الله عن الناس ورضاه هو عنهم، وأن الأمرين شأن واحد . كان الحسين، في كل خطابه السياسي المكتوب والملفوظ، متوثقاً من أمرين اثنين: حقه المطلق في حكم الناس، وجنة الخلود لمن يساند ذلك الاختيار من عوام الناس. وحين يجبِر جنودُ ابن زياد عبد الله بن يقطر، أخ الحسين من الرضاعة، ليذم الأخير أمام الناس فإنه يقول لهم :

[1] من المناسب أن نشير إلى أن ثيمة "الحق" والتي ستعني حقّ آل البيت الحصري في تولّي أمور الناس برز في لغة الحُسين وخطابه بعد موت معاوية، وحين قرّر الحُسين الهجرة إلى العراق.

[2] البلاذري، أنساب الأشراف

"إني رسول ابن بنت رسول الله إليكم لتنصروه على ابن سمية وابن مرجانة". كان الحسن، الأخ الأكبر، قد لجأ إلى الخطاب نفسه محاولاً حشد الناس لمواجهة معاوية في العام ٤٠ هـ، أعني التحشيد باستخدام دالّة ابن فاطمة وابن مرجانة. ومرجانة في وعي أبناء علي لم تكن أماً لأحدٍ بعينه، بل هي كل أمّ يدّعي أبناؤها أن لهم حقّاً وشرفاً لا يقل عن حق أبناء علي[1].

مضى الحسين في طريقه، وكلما التقى رجلاً أو معشراً قال لهم إنه ماض إلى استرداد حقّه، والحق هُنا تقدير إلهي كما يرى. وما إن يتوغل في أرض العراق حتى تصله خيل الحر بن يزيد التميمي، من رجال يزيد، وتكون مهمته مراقبة موكب الحسين عن كثب. ينتهز الحسين فرصة اقتراب الجنود منه فيبلغهم سببَ مجيئه ودعوته للثورة "إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن ذلك أرضى لله، وإن أنتم جهلتم حقنا انصرفتُ عنكم"[2]

كان يعي ما يقول حين ينسب السياسة إلى العترة قائلاً "حقنا" هكذا بالجمع كي يصبح حقّاً مفتوحاً على مرّ الأزمان لا يسقط بموت قدامى الأئمة، آباء العترة المؤسسين. دائماً هُناك حق،

1 تراث آل البيت عامرٌ بمرويات ونصوص تعايُر الخصوم بأمّهاتهم، وتبدو ثيمة مركزيّة في خطاب آل البيت، بما في ذلك آثارهم الشعرية

2 البلاذري، أنساب الأشراف، الجزء الثالث

أي سُلطة، ودائماً ما يكون هناك "نا" أي عترة، وارتباط العترة بالسلطة هو "ما يرضي الله"، بحسب كلمات الحسين.

ثمّة أمر خطير يتجاهله المؤرخون، وهو رحلة مسلم بن عقيل من مكة إلى العراق. تذكر مصادر عديدة أن ابن عقيل ومن معه اتخذوا دليلين عارفين بالصحراء، غير أن ذينك الدليلين فقدا حياتيهما، واحداً تلو الآخر، من العطش. وهنا نسأل: كيف يموت رجلان متمرسان على الصحراء والعطش وينجو ابن عقيل بن أبي طالب ومن معه، وهم من سكّان الحواضر؟ أغلب الظن أن ابن عقيل احتفظ بما لديه من الماء ومنعه عن الدليلين، وتركهما يموتان أمام عينيه. وربما تشاجروا على القليل من الماء وانتهى الأمر بالدليلين صرعى بيد سيوف آل البيت، وهذا مجرد حدس تاريخي استرجاعي. مثل تلك القضايا، على أهميتها البالغة وما تحمله من إشارات ثرية، يتجاوزها المؤرخون.

لا يوجد في سيرة الحسين ما يشير إلى أنه كان يفهم حقوق الناس، أو يدرك شيئاً عن رغبتهم في الحرية والكرامة، وهي المعاني الأساسية لأي ثورة بصرف النظر عن زمنها ومكانها. إن خياله السياسي يصدر عن عجزه في فهم الإسلام، فهو يخلط بين النبوة والسلطة على نحو مدمر، ولا يظنّ وحسب أن النبوة تصيرُ إلى سُلطة تجري في الأبناء، بل يذهب أبعد من ذلك. فالنبوة نفسها غير منتهية، وقد وصلته بطريقة ما. وتلك ظاهرة تكاد تكون تاريخية، فالفلاسفة والمصلحون يعترفون بأنّ أهاليهم لم يبذلوا جهداً لفهم ما أرادوا قوله.

يمكن لأي باحث في التاريخ أن يرى كيف يتقمص الحسين دور النبي، يمنح الغفران للأفراد والجماعات، يعد الناس بالجنة أو النار، ويبدو حاسماً وقاطعاً في كل أمر يراه، وكان آخر ما سمعه مثقفو المدينة ومكة منه، أعني المحدثين والفقهاء، قوله إنه ماض لإنفاذ أمر الله الذي بلغه. وتلك اللغة لا تصدر عادة إلا عن نبي مرسل، أو رجلٍ تلبّسه وهمُ النبوّة[1].

[1] ابتدأ احتكار آل البيت للنبي والنبوّة لحظة موت النبي، فقد حالوا دون أن يشاركهم أحد غسله، ثم حالوا دون أن يشارك أيّ من أصحابه، عدا بني هاشم، في دفنه. ثمّة رواية يذكرها ابن خلدون في تاريخه عن نزول المغيرة بن شعبة، راوية الحديث المشهور، إلى القبر. غير أن عليّاً حين نقل له ما قاله المغيرة علّق قائلاً "يكذب المغيرة بن شعبة".

اللعنة والفداء

ابن السوداء رجلٌ يهودي من صنعاء، ويقال من الحيرة، واسمه عبدالله بن سبأ. يقول الطبري، نقلاً عن سيف بن عُمر، أن الرجل ذرع الحجاز، العراق، الشام، ومصر خلال ما لا يزيد عن أربعة أعوام (بين عامي ٣٣- ٣٧). وأنه، خلال ذلك الوقت القصير، استطاع أن يقلب العالم المسلم ظهراً على عقب: قاد ثورة ضد عثمان انتهت بمقتل الأخير، أشعل الحرب بين عائشة وعلي، دق أسفيناً بين كبار الصحابة، خلق قطيعة بين الحجاز والعراق، غيّر في عقائد المسلمين، دل أهل العراق على فكرتي الوصاية والعودة، قاد قطعان المتمردين بين الأمصار، وفكك مجتمع المسلمين إلى سنة وشيعة. ولولا ابن السوداء، يقول المؤرخون، لما وقع المسلمون فيما وقعوا فيه.

أراد المؤرخون أن يفلتوا من الضغط الواقع عليهم بينما هم يدونون التاريخ. عائشة، أم المؤمنين، تحرّض على إقالة عثمان بعد أن رأته يختار ولاة سيئي السمعة، ينحاز إليهم ضد ضحاياهم، ويحابي عشيرته. عليّ وبنو هاشم يتواطؤون مع المتمرّدين الذين اخترقوا المدينة للفتك بالخليفة، والمتمرّدون يكافئون عليّاً بتنصيبه أميراً للمؤمنين. الصحابة الآخرون، ممن أقالهم عثمان أو تجاهلهم، أشاعوا موجة استياء ضد الخليفة الذي أبلى سنة رسوله الله قبل أن يبلى ثوبه، كما هو التعبير الأثير الذي ابتكرته عائشة.[1]

[1] أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، الجزء الأول، ص: ٢٣٩

أضاع مجتمع المدينة البوصلة السياسية، وانعكست فوضى العاصمة على الأطراف. بلغ التوتر مداه مع إصرار عثمان على الاحتفاظ بالسلطة، وإصرار جزء كبير من الصحابة على التشويش عليه. حتى إن عائشة، كما تذهب مصادر عديدة، حين رأت أن المواجهة بين الحاكم وشعبه ذاهبة في طريق اللاعودة، ركِبتْ جملها وذهبت للحج. كان ابن عبّاس، كما في الكامل في التاريخ، قد أسدى نصيحة مشابهة لعلي بن أبي طالب: أن يغادر المدينة ويلتحق بمال له في ينبع قبل أن يفتك المتمرّدون بالخليفة فتشير الأصابع إليه1. رفض عليّ النصيحة، وتقارب مع المتمرّدين. استقر في وعي عائشة أن عثمانَ غير جدير بالحكم، مقارنة إياه بزوجها وأبيها. كما رأى بنو هاشم في عثمان حاكماً مغتصباً، مستعيدين صراعات الماضي السحيق التي جرت بين الأجداد في مكّة. اختلط دخان المساجد والبيوت في المدينة، وعلق الرجال جميعاً في أزمة عديدة العُقد، إلى أن تسلل محمد بن أبي بكر، ربيب علي، إلى الدار مع جماعة من المتمرّدين وأهرقوا دم الخليفة.

كان الصحابة، ربما بلا استثناء، شركاء في صناعة تلك الفوضى، وكان ذلك ليكون متوقعاً. فالفراغ الذي تركه عمر بن الخطاب، وكان حاكماً واسع الخيال والسطوة، ليس بالأمر اليسير. حدث أن وضع عثمان بن عفان قدميه الصغيرتين في نعلي سلفه الواسعتين. كيف يمكن لمؤرخ،

---

[1] **تاريخ الأمم والملوك**، الجزء الرابع، ص: ٤٣٩-٤٤٠، وص: ٤٦٠-٤٦١. **مروج الذهب**، الجزء الثاني، ص: ٣٦٤. **الكامل في التاريخ**، الجزء الثاني، ص: ٣٠٦، والجزء الثالث، ص ٣٠٦، والجزء الثالث ص: ١٩٧-١٩٨. **وآخرون**.

والمؤرخ رجل متدين في العادة، أن يكتب قصة ذلك القرن؟ فطن الطبري إلى رواية تتحدث عن رجل اسمه عبد الله بن سبأ، اليماني الذي غادر صنعاء وقد أقسم ليمزقن الدولة الإسلامية كما لم يحدث من قبل. عاش الطبري في القرن الثالث الهجري، وساق سيرة ابن سبأ لتصبح واحدة من أهم الشروحات حول ما جرى في عاصمة الإسلام في ثلاثينات القرن الهجري الأول. قفز ابن سبأ إلى وسط الأحداث من اللاتاريخ، وأخذت قصته حيّزاً كبيراً داخل الخيال التاريخي، وعاشتْ لا يجرؤ أحد على المساس بها. من شأن إنكار القصّة تلك أن يضع صاحبه في مواجهة مباشرة مع الأبطال الحقيقيين الذين لا يريد أحد أن يتحدث عنهم. فهم صحابة كبار يعتقد المسلم أنهم منزهون عن الدسيسة والخيانة والجريمة. وهكذا فإن التشكيك في قصة ابن سبأ سيكشف عن حقيقة لا يحتملها أحد.

صيّر المؤرخون ابن السوداء إلى رجل خارق، مثقف ساحر، جيّاب الآفاق، خبير في فنون النفس البشرية، وحافظ لكتب السماء كلها. أوقع بالصحابة الكبار، من أمثال أبي ذر، ودفعهم للعمل ضمن آلته الدعائية التدميرية. وبالرغم من أنه لم يقض في العراق أكثر من عامين إلا أنه نجح في تغيير عقيدة الناس، وأعاد هندسة الخيال الإسلامي فيما يتعلق بأخطر المسائل الغيبية كالوصاية والعودة. ابتكر فكرة عودة النبي قبل يوم القيامة، وأضاف إليها حكاية الوصي التي جاء بها من العهد القديم: لكل نبيّ وصي، وعلي هو وصي محمد. كما دفع النّاس إلى تأليه عليّ والإيمان بخلود أبنائه من الأئمة. وفي معركة الجمل، ٣٦ هجرية، وقف ابن السوداء ضد عملية السلام

التي كانت آخذة في الجريان بين الأطراف، دافعاً أتباعه إلى تأجيج المواجهة والتشبيك بين الجبهات. وكما هو متوقع فإن كل حيل عبدالله بن سبأ كانت ناجحة وموفقة، عدا محاولاته في الشام. هناك فطن له معاوية ونفاه.

كانت بلاد الشام مستقرّة سياسيّاً تحت قبضة معاوية، وقصة ابن السوداء جيء بها لتفسر الفوضى. لذا فقد سمح الراوي لنفسه بأن ينهي رحلة ابن السوداء إلى الشام سريعاً، إذ قام بكشف أوراقه أمام معاوية، فنفاه الآخر إلى خارج أراضيه. لماذا لم يقتله معاوية بما أنه اكتشف يهودية الرجل ونشاطه التخريبي المدمّر؟ ذلك أن المؤرخين كانوا بحاجة ماسة إلى ابن السوداء من أجل تفسير بعض التموجات السياسية التي جرت في مصر وأقطار أخرى، وليس من الجيد لقصة تعليلية كتلك أن تنتهي. سافر ابن السوداء، إذن، إلى مصر وهناك قلب البلادَ كلها على والي عثمان. يستريح المؤرخون إلى القصة التي تقول إن المتمردين القادمين من مصر اشتركوا في قتل عثمان، وأنهم إنما فعلوا ذلك بأمر من ابن السوداء.

إن حركة ابن السوداء بين الأمصار لا تلتزم بخط زمني معيّن، فهو في العراق والمدينة والشام ومصر، يؤلّب ويكرز ويثور. بأي تسلسل زمني تحرك الرجل في الأمصار؟ تقدم كتب التاريخ إجابات مشوشة، وهي أضابير كتبها مؤرخون أذكياء تخلوا عن ذكائهم أمام هذه الحكاية عن طيب خاطر. إنه كبش الفداء الذي عثر عليه الطبري وقدّمه للأمة. وجد الدارسون، والمسلمون بشكل عام، مخرجاً لتلك المعضلة الأخلاقية: أيعقل أن يكون الصحابة قد قتل بعضهم بعضاً؟

يدخل ابن السوداء في مرحلة سكون عجيب بعد مقتل علي بن أبي طالب. لقد جاء الحكم العضوض، وكل ما فيه رذيلة فما من داع لصنائع ابن السوداء.عاش ابن سبأ زهاء الثلاثين عاماً في العهد الأموي، ثلاثة عقود شهدت فيها البلاد استقراراً في السياسة والمعاش. اختفت، والحال كذلك، الحاجة لابن السوداء، وفقد فجأة كل قدراته وإمكاناته الخارقة. حتى إنه لم يحاول أن يجرّب أساليب جديدة في العصر الأموي، وعاد إليه اسمه الحقيقي: عبدالله بن سبأ. لقد تبخّر من كتب التاريخ، وكان شاغلها الأكبر.

كيف يمكن لرجل واحد، في أجواء ذلك الزمان، أن يحدث كل ذلك الصنيع؟ هذا ما أثاره طه حسين في "عليّ وبنوه"، ورأى أنها قصّة مختلقة. تحمّس الشيعة لقصة ابن السوداء أول الأمر، وتناقلها إخباريون من غلاة الشيعة مثل لوط بن يحيى وأبو مخنف وسواهم. كانت بالنسبة لهم قصّة جيّدة تصلح لصرف الأنظار عن دور محتمل لبني هاشم في أخطر أزمة سياسية وقعت في القرن الأول. على وجه الخصوص بعد أن نقل المؤرخون، كالطبري، قصائد شعرية تدين عليّاً، ألّفها شعراء كبار مثل ليلى الأخيلية، حسان بن ثابت، الوليد بن عقبة، وسواهم. غير أن مؤرخي الشيعة اكتشفوا خطورة قصة ابن السوداء فقاطعوها. تقول الحكاية إن ابن سبأ اليهودي هو من خلق الفتنة بين المسلمين، وتقول إنه هو من اخترع فكرة الوصي وروج لها في العراق قائلاً ما من نبي إلا وله وصيّ، ووصي نبي الإسلام علي. وقعت الشيعة في الفخ، وكادت تنسب النواة المركزية في عقيدتها، الوصاية، إلى رجل يهودي. تخلى مؤرخو الشيعة عن قصة ابن السوداء، لم يجدوا

فيها الفائدة المرجوّة. بقي مؤرخو السنة على مواقفهم، ولا يزالون يحرسون تلك الحكاية حتى الآن.

عمليّاً لا يخسر مؤرخو السنّة من وراء تلك القصة شيئاً. خلاف ذلك فهي تساعد على حماية الدين نفسه من خلال تنزيه شخوصه عن الجريمة والدسيسة. إن التشكيك في الاستقامة الأخلاقية لفرد من مجتمع الصحابة سينسحب إلى الشك في ما رواه ذلك الفرد عن رسول الله. أقوال رسول الله، وهي نصوص نقلها الرجال، هي المصدر الثاني للتشريع. عند ابن الأثير في الكامل، والثقفي في الغارات، أن أبا موسى الأشعري حين رأى عمّار بن ياسر في العراق نهره قائلاً "يا أبا اليقظان، أعدوت على أمير عثمان قتلته؟" وأن الأخير اعترف بأن مقتل الخليفة لم يسؤه1. إن مثل هذا الاتهام المدوّي، الصادر عن رجل من كبار الصحابة إلى رجل ممن شهدوا بدراً والرضوان، لهو خبر أكبر من أن يحتمله فقيه معني بحراسة الدين. يحدث الأمر نفسه حين يكتب حسان بن ثابت قصيدة يتهم فيها عليّاً بالتآمر على قتل عثمان. الجماعة الرفيعة، التي ستنعت دائماً بأنها الدين نفسه، تتبادل الاتهامات بالجريمة. كان حديث الرسول ليُردّ لمجرّد أن ناقله كان يمشي بلا عمامة، أو تبوّل واقفاً. وهنا نجدنا بإزاء ناقلي الدين الكبار، حفظة القرآن وحاملي كلام الرسول، وعلى كاهلهم اتهامات أخطر بكثير من ترك العمامة: القتل. تبدو قصة

[1] كما عند الثقفي في **الغارات**، الجزء الثاني ص: ٩٢٣. وعند ابن الأثير في **الكامل في التاريخ**، الجزء الثاني، ص:٣٨ وغيرهم.

ابن السوداء في هذا السياق وكأنها كبش فداء متفق عليه لإنقاذ الموقف، وإخراج كبار الصحابة من قصّة لو مكثوا فيها لزعزعت تفوقهم الأخلاقي.

من الممكن أن يكون عبد الله بن سبأ، إن لم يكن وهماً خالصاً، مثقفاً يهودياً احتفظ بديانته داخل المجتمع المسلم. ربما تحوّل إلى الإسلام محتفظاً برؤيته اليهودية للتاريخ والعالم. اليهود الذين التحقوا بالإسلام كانوا أقدر من سواهم على إكمال فراغات القصص القرآنية، وتأويلها. غالباً ما كانوا يقدمون تخيلاتهم اليهودية لعالم الغيب. وحين انتعش سوق الرواية، وتقافز الناسُ ليحدثوا الناسَ عمّا سمعوه من الرسول، برز المسلمون اليهود أيضاً وكانت قصصهم ورواياتهم ربما أكثر إثارة. إن الإسرائيليات ليست سوى قصص يقف وراءها مثقف يهودي. في أحايين كثيرة كانت القصة القرآنية عن الأزمنة الغابرة تأتي مكثفة بما يخدم سياقاً وظيفيّاً معيّناً. وجد المسلمون اليهود في ذلك التكثيف دعوة إلى تقديم الشروح بما يعرفونه من العهد القديم. وربما تفوقوا في الإثارة والتشويق على المحدثين العرب.

بمقدورنا تخيّل مجالس المحدثين اليهودي، المجالس الإسرائيلية، عامرة بعدد من المستمعين يفوق مجالس المحدثين العرب. ربما كان ابن سبأ أحد أولئك المحدّثين، في أفضل الأحوال. في الأجواء تلك تخلقت خرافات تأسيسية، بعضها وظيفي وبعضها مجاني. فالنبي يمشي في الطرقات ويرى طفلاً اسمه ابن صياد، يسأله أتشهد أني رسول الله؟ فيرد الطفل: لا، بل تشهد أنت أني رسول الله، كما في صحيح مسلم. فيما بعد يصبح ابن صياد هذا، في خيال الناس، هو الدجّال الذي

سيمسك الشمس ويوقفها في كبد السماء. في ظروف أكثر تعقيداً كانت قصة ابن صياد ستكبر إلى الحجم المناسب حتى يصير بمقدورها شرح الأحداث الكبرى والانهيارات. غير أن الأيام جرت، ووجد رواة الحديث وسواهم من الإخباريين إن قصة ابن صياد جيدة ولكنها لا تفيد كثيراً. ما من قصة قد بلغت ما وصلته حكاية عبدالله بن سبأ، اليهودي الذي استطاع بلا جيش أو قبيلة أن يزعزع البلاد من اليمن إلى مصر في بضعة أعوام. ولولا تلك القصّة لانهال الناس بالأسئلة، ولما وجدت كتب التاريخ من أجوبة تكفي. غير أن ابن السوداء جاء في موعده، حمل خطايا كل ذلك الجيل على كاهله وتلاشى على نحو غريب. مضى مشيّعاً باللعنات كلها، ونجا حملة الدين من الخطايا. وبدلاً عن أن يتتبع الناس سيرة أبي الحسن، كيف انتقل من العزلة إلى النكسة وخاض حرباً ضد الجميع، فقد قدّم المؤرخون قصّة بديلة اسمها ابن السوداء. وابن السوداء هو الشجرة التي أريد لها أن تحجب الغابة.

مراجع الكتاب

1. إبراهيم بن محمد الثقفي، **الغارات**
2. ابن أبي الفتح، **كشف الغمة**
3. ابن أبي شيبة، **المصنف**
4. ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**
5. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أخبار المائة الثامنة**
6. ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**
7. ابن شبة النميري، **تاريخ المدينة**
8. ابن عمرو الشيباني، **تاريخ الآحاد والمثاني**
9. ابن قتيبة الدينوري ، **عيون الأخبار**
10. ابن قتيبة الدينوري، **الأخبار الطوال**
11. ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**
12. ابن مزاحم المنقري، **وقعة صفّين**
13. أبو الحسن المسعودي، **مروج الذهب**
14. أبو العباس القلقشندي، **صبح الأعشى**
15. أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**
16. أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**
17. أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي، **الموضوعات من الأحاديث المرفوعات**

18.أبو القاسم الخوئي، **مصباح الفقاهة**

19.أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر، **تاريخ دمشق**

20.أبو بكر بن أبي عاصم، **الآحاد والمعاني**

21.أبو جعفر الطوسي، **تهذيب الأحكام**

22.أبو داود سليمان بن الأشعب السجستاني، **سنن أبي داوود**

23.أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**

24.أبو عمر يوسف بن محمد ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**

25.أبو منصور أحمد الطبرسي، **الاحتجاج**

26.أبو منصور الثعالبي، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**

27.أحمد بن إسحاق اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**

28.أحمد بن الحسين البيهقي، **دلائل النبوة**

29.أحمد بن حنبل، **فضائل الصحابة**

30.أحمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**

31.أحمد بن شعيب النسائي، **السنن الكبرى**

32.أحمد بن علي أبو يعلى، **مسند أبي يعلى**

33.أحمد بن محمد ابن مسكوية، **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**

34.أحمد بن محمد بن عبد ربه، **العقد الفريد**

35.أحمد بن يحيى البلاذري، **أنساب الأشراق**

36.أحمد عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب**

37.اسماعيل بن علي أبو الفداء، **تاريخ أبي الفداء**

38.اسماعيل بن عمر ابن كثير، **البداية والنهاية**

39.أمين الخولي، **مالك بن أنس**

40.بدر الدين العيني، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**.

41.تاج الدين السبكي، **طبقات الشافعية**

42.تقي الدين أحمد ابن تيمية، **الصارم المسلول على شاتم الرسول**

43.تقي الدين أحمد ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**

44.تقي الدين أحمد ابن تيمية، **منهاج السنة النبوية**

45.جعفر العاملي، **الصحيح من سيرة الإمام علي**

46.الجنرال أ. أكرم، **سيف الله خالد بن الوليد**.

47.الحارث بن محمد، **مسند الحارث**

48.الحر العاملي، **وسائل الشيعة**

49.الخطبيب البغدادي، **الكفاية في علم الرواية**

50.الديار بكري، **تاريخ الخميس**

51.سبط الجوزي، **مرآة الزمان**

52.سليمان بن أحمد الطبراني، **المعجم الكبير**

53.سهير القلماوي، **أدب الخوارج**

54.السيد البراقي، **تاريخ الكوفة**

55.سيف الضبي، **الفتنة ووقعة الجمل**

56.الشريف الرضي، **نهج البلاغة**

57.شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير والأعلام**

58.شمس الدين الذهبي، **تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال**

59.شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**

60.شمس الدين الذهبي، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**

61.الشيخ الصدوق، **علل الشرائع**

62.الشيخ المفيد، **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**

63.صلاح الدين الصفدي، **الوافي بالوفيات**

64.ضياء الدين ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**

65.ضياء الدين ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**

66.طه جابر العلواني، **أدب الاختلاف في الإسلام**

67.عبدالرزاق الصنعاني، **كتاب المغازي**

68.عبدالرزاق الصنعاني، **مصنف عبدالرزاق**

69.عبدالعزيز علي، **أثر التشيّع على الروايات التاريخية**

70.عبدالقاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق**

71.عز الدين عبدالحميد ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغ**

72.علي بن محمد ابن الصباغ، **الفصول المهمة في معرفة الأئمة**

73.علي شريعتي، **علي في محنه الثلاث**. ترجمة: علي الحسيني، إبراهيم دسوقي

74.عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين**

75.عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب العثمانية**

76.عيسى بن مسعود الزواوي، **مناقب الإمام مالك**

77.الفتّال النيسابوري، **روضة الواعظين**

78.كمال الدين ابن العديم، **بغية الطلب في تاريخ حلب**

79.لاورا ڤاغليغيري، **إنسكلوبيديا الإسلام**

80.المتقي المهدي، **كنز العمال**

81.مجد الدين المؤيدي، **لوامع الأنور**

82.محب الدين الطبري، **الرياض النظرة**

83.محمد إبراهيم الفيومي، **الفرق الإسلامية وحق الأمّة السياسي**

84.محمد العاملي، **نهاية المرام**

85.محمد الغزالي، **فقه السنة**. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني

86.محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**

87.محمد بن أحمد الحسني المكّي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**

88.محمد بن أحمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**

89.محمد بن اسماعيل البخاري، **التاريخ الكبير**

90.محمد بن اسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**

91.محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**

92.محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري**

93.محمد بن سعد، **الطبقات الكبرى**

94.محمد بن يزيد المبرّد، **الكامل في اللغة والأدب**

95.محمد ناصر الألباني، **صحيح سنن أبي داوود**

96.محمد ناصر الدين الألباني، **دروس الشيخ الألباني**

97.محمد ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الضعيفة**

98.محمد ناصر الدين الألباني، **صحيح الجامع الصغير**

99.محمد يعقوب الكليني، **الكافي في الأصول والفروع**

100. مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**

101. يوسف البحراني، **الحدائق الناضرة في شرح العترة الطاهرة**